حكايات جنود في سيناء

الطبعة الأولى
1441هـ - 2020م

الناشر : دار زهور المعرفة والبركة
27 ش أثر النبي – مصر القديمة – القاهرة
01000741164 - 01226406489
البريد الالكتروني yuness2005@hotmail.com

محمد يونس هاشم

حكايات جنود في سيناء

رواية واقعية

١٢٧ ش أثر النبي – مصر القديمة ـ القاهرة
ت: ٠١٠٠٠٧٤١١٦٤ - ٠١٢٢٩٠٦٩٣٤٨

هاشم ، محمد يونس هاشم
حكايات جنود في سيناء : رواية واقعية / محمد يونس هاشم
:- القاهرة: دار زهور المعرفة والبركة للنشر والتوزيع ،
2018
ص : 262 ، 14× 21 سم
تدمك 9789775172877
1- القصص العربية الواقعية .
أ- العنوان
813.083
رقم الإيداع 14384 التاريخ 2018/7/24

١

الحمد لله بعد معاناة وصبر كبيرين تمكَّنت من نشر روايتي الأولى " مذكرات أديب مغمور " وقصة نشرها كالآتي عرضت الرواية على عدة ناشرين فرفضوها جميعاً لأني لست روائيّاً معروفاً ، كما أني لست أستاذاً في الجامعة ، وأخيراً رقَّ لحالي أحد الناشرين الصغار فعرض عليَّ أن يعمل نسختين من الرواية ويقدِّمهما ضمن الكتب التي يقدمها لوزارة التربية والتعليم فإن أدرجت الرواية ضمن قائمة كتب مكتبات المدارس سوف يطبعها لي ، وبفضل دعاء الوالدين تمَّ قبول الرواية في قائمة كتب مكتبات المدارس الإعدادية وكدت أجن عندما أبلغني الناشر بهذا الخبر السعيد وأخذت أقفز وأصفِّق وأرقص ، يشاركني في ذلك ابني شريف دون أن يدري السبب ، واستيقظت زوجتي العزيزة وابنتي الصغيرة ، وقبل أن تفتح زوجتي فمها عاجلتها بما ظننتُ أنه سيقطع لسانها ، ويحرِّرني من أسْر قهرها لي طيلة السنوات الخمس الماضية ، وسخريتها المريرة من موهبتي الأدبية فصرخت فيها : إن روايتي سوف تنشر وتُزيِّن جميع مكتبات المدارس الإعدادية على مستوى الجمهورية كلها ...

فقاطعتني ببرود : وماذا سيعطيك الناشر أجراً عليها ؟

- خمسمائة جنيه غير ٢٠ نسخة هدية .

- خمسمائة جنيه فقط ، وهذا يجعلك ترقص كالأطفال وتزعج البنت الصغيرة ....

- هذه هي البداية فقط ، وبعد نشر الرواية فسوف أدخل بها مسابقات القصة في مصر وفي خارجها ، وسوف أعرضها على المنتجين ،وأنا واثق إنه سيتم إنتاجها كفيلم أو مسلسل تليفزيوني...

- المهم الآن متى ستقبض الخمسمائة جنيه ؟

- قريبا جداً إن شاء الله .

ويوم أمسكتُ الرواية باليد اليمنى والخمسمائة جنيه باليد اليسرى طرت بهما إلى زوجتي التي عندما رأتني صافحت يدي اليسرى ، ولم تحْفَل بالرواية .. ليس مهماً ، المهم أن تعرف أني أصبحت كاتباً مُعْترفاً به ، ولن تضايقني في الكتابة ولا تضيِّق عليَّ ، وتشغلني بطلباتها التي لا تنتهي كما كانت تفعل معي أثناء كتابتي للرواية الأولى .

***

٢

هأنذا عزيزي القارئ أفي بعهدي لك وأنجز ما وعدتك به في روايتي الأولى حيث قلت : " فإن كَتَب اللهُ تعالى لها أن تُنْشَر وتَنْتَشِر فأنا أعدك عزيزي القارئ بكتابة المزيد منها فما كُتِب في هذا الكتاب لا يمثل إلا أربعة أشهر فقط من مذكرات حرصت على كتابتها لنحو عشر سنوات .

وكنت أتمنَّى عزيزي القارئ أن أكمل لك هذه المذكرات وأحكي لك ماذا قال لي وجيه عندما فتح لي قلبه ، والمفاجآت التي اكتشفتها في حياته ولم يدر أحد عنها شيئاً ، والقصة التي كتبتها عنه ، وماذا فعل بالضابط مدحت عندما مرَّ عليه في الخدمة ولم يكن يعرف كلمة سر الليل ؟ ...

ولقائي بنور في المَلَكِيَّة وأحواله بعد زواجه ، وأين يحتفظ بقصة " في الطريق " التي كتبتها فيه ؟ والخبر الخطير الذي قاله لي...

وبقية علاقات الباجوري العاطفية ، وكيف تمكَّن أخيراً من خِطْبة إبتسام (بطلة قصة النهاية) وموقف أبيه من ذلك .

وماذا حدث عندما ذهبتُ أنا وبعض الزملاء لرؤية أحد الخنادق الإسرائيليَّة دون إذن من قائد السرية ؟

وقصة الأشباح التي رأيتها وأنا عائد من الإجازة في ليلة غاب فيها القمر .

والليلة التي خطف البرق فيها بصري .

كذلك حكايات دفعة الجنود الجدد الذين حلُّوا محل نور ، وأسامة، وراغب ، وإيهاب ، وزين ، ومصطفى جلال ، وعلاء أحمد ، وأحمد قنديل و...

كنت أريد أن أحدثكم عن سمير وزميلاته في الجامعة ، وخضر ولماذا حكم عليه بالإعدام وتم تنفيذ الحكم فيه سريعاً؟ وغيرهم ، والقصص التي كتبتها فيهم .

فإن كَتَب الله أن يُنشر هذا الكتاب ، وتوفَّق الأوضاع بيني وبين زوجتي فأعدك أن أكمل مذكراتي وأحكي لك حكاية كل قصة كتبتها ، في الجامعة ، وفي الجيش ، وفي المَلَكِيَّة ، وبعد الزواج "

والحمد لله نُشِرت الرواية الأولى ووفِّقت الأوضاع بيني وبين زوجتي – إلى حدٍّ ما – لذا أجد لزاماً عليَّ أن أفي بعهدي لك عزيزي القارئ خاصة أن القوات المسلحة بكافة أفرعها قد بدأت العملية الشاملة سيناء ٢٠١٨، وأصدرت بيانات تفصيلية بكل الأحداث التي تدور في المناطق التي حددَّتها حتى يكون المواطن على علم بكل ما يحدث ، ومنذ بدء العملية والأحاديث عن سيناء لا تتوقَّف ، وإذا لم يكن لي شرف الاشتراك في هذه العملية فإني وزملائي قد شُرِّفْنا بالخدمة في سيناء ، كما أن زوجتي فرحت بالخمسمائة جنيه التي قبضْتُها أقصد التي قبضَتْها أجر نشر روايتي الأولى فلن تعارض في استكمال كتابة ذكرياتي القديمة .

***

٣

في اليوم التالي لصدور روايتي الأولى بعد أن عدت من عملي وتناولت طعام الغداء مع زوجتي وابني شريف الذي أصبح في الصف الأول الابتدائي نمت حوالي ساعتين واستيقظت نحو الخامسة .

صنعت فنجان قهوة ، ومع أني لا أشرب القهوة إلا أني كنت أعرف أن كلَّ الكُتَّاب الكبار يشربون القهوة فاشتريت ربع كيلو بُنٍّ محوِّجاً وأنا عائد من عملي اليوم وصنعت فنجان قهوة وأخرجت الكشاكيل المُدوَّن فيها مذكراتي وجلست في الصالة ؛فقد كان الجو بارداً ، ولن أكتب من الآن فصاعداً إلا في الصالة عَيَاناً جَهَاراً ؛ فقد كنت قبل ذلك أكتب في البلكونة أو بعد أن تنام زوجتي أو في الأوقات التي تكون فيها مشغولة أو خارج البيت حيث كنت أديباً مغموراً قبل ذلك ، أمَّا الآن فالوضع قد اختلف فأصبحت كاتباً ولقد اختارت وزارة التربية والتعليم روايتي لتدرجها ضمن قائمة المكتبات المدرسية ، ولن تجرؤ زوجتي بعد اليوم أن تعترض وقد تيقَّنت من أني كاتب وقَبَضَتْ الخمسمائة جنيه التي تؤكد ذلك .

احتسيت القهوة التي لم أستسغها لا أدري هل لأني لم أحسن عملها أم لأني لم أتعوَّد على شربها ؟

أخرجت مذكراتي وأخذت أبحث فيها عن حكايات زملائي الجنود وخاصة تلك التي وعدتك عزيزي القارئ أن أحدثك عنها وأثناء البحث وجدت هذه الحكاية .

" ٥/١ / .. بينما كنت في الخدمة النهارية الساعة الثانية عشرة والنصف ظهراً إذ جاءني أسامة (بطل قصة زمن الطغيان) وجلس معي ، وتحدَّثنا في مواضيع شتَّى ثمَّ حدَّثني عن أنه حدَّد موعد زفافه على صفاء زميلتي في الكلية يوم ٦ يونيو القادم بعد إنهاء خدمته العسكرية بنحو عشرة أيام ، وسألت أسامة عن قصة تعرُّفه على صفاء حتى أكتبها له في قصة أخرى تكون هدية زواجه .

سكت أسامة وسرح نحو دقيقة ثم قال : أول مرَّة أرى صفاء فيها كان في فرح أحد أقاربي ، رأيتها وأعجبت بها من أوَّل نظرة ؛ فأنا أحب الشَّعر الأسود ، والعيون السود .. أخذت أنظر إليها طول الفرح ، ولاحظتْ هي ذلك ، وبعد الفرح بدأت أفكِّر فيها، وكنت خارجاً من كارثة وهي حريق عَرَبَة الأَكْل التي كنت شريكاً فيها مع سيد وشخص آخر ، وخسرت نحو ٣٠ ألف جنيه ، وأصبحت في حالة انعدام وزن ، وأسرفت في العلاقات الجنسية والشُّرْب ، والتهريج ، وكنت أريد أن أستقرَّ ، وأهدأ ، وأرتاح .

في هذه الفترة رأيت صفاء ، فأعجبت بها ، وبدأت أفكِّر فيها حيث لم يكن هناك ما يشغلني ، وبدأت صفاء تفكِّر فيَّ أيضاً ، ولم يكن لها أية تجارب عاطفية سابقة ، وحدثتني عن هذه الفترة بعد ذلك فقالت : " كنت كلما تكلَّمت مع صديقاتي عن الحب وعن الزواج لا أجد إلا صورتك أمامي " وبدأَتْ تفكِّر فيَّ وتحس أنيِّ مَن سيعوضها عن النقص الذي تشعر به ، نقص أن تُحِب وتُحَب مثل صديقاتها ، وبدأَتْ تسأل عنِّي قريبة لها تعرفني .

وأقيم بعد ذلك فرح آخر لأحد أفراد العائلة ، وتمنَّتْ صفاء أن تراني فيه ، ولم أذهب إلى الفرح ، ولو كنت أعلم أن صفاء ستذهب إليه لذهبت .

وفي يوم سألت عنها ابنة عمي وكانت تعرفها ؛ فصفاء قريبة لنا من بعيد ، فقالت لي : إنها تهتم بي أيضاً وتسأل عني ، لكن حذَّرتني منها ؛ فهي " لَحْمَة مُرَّة " وهي غير البنات اللاتي أعرفهن ، وأنا معروف في العائلة بكثرة علاقاتي مع الجنس الآخر، وقبلت التحدِّي .

ويوم نتيجة الثانوية العامة ذهبت إلى بيت صفاء ، وأخذت معي علبة حلوى غالية الثمن من عبد الهادي الحلواني ، طرقت الباب ففتحت صفاء وعندما رأتني تركتني وجرت ، جلستُ مع والديها :

والدتها التي تعرَّفْتُ عليها في الفرح الذي رأيت فيه صفاء أول مرة، أما أبوها فلم أكن قد رأيته من قبل ، تحدَّثت مع والدها في أحاديث عامة ، ثم عادت صفاء بعدما بدَّلت ثيابها وسألتها عن الكُليَّة التي ترغب في الالتحاق بها ، ورشَّحت لها كلية التجارة التي كنتُ في الصف الثالث فيها ورسبت مع أني كنت واثقاً من النجاح ، وهذا من بين أسباب انعدام الوزن الذي كنت أعيش فيه في هذه الفترة .

قالت صفاء : إنها لا تحب الرياضيات وتفضِّل الالتحاق بكلية الحقوق فأفهمتها أن كلية الحقوق كلية صعبة وليس لها مستقبل وتحتاج مذاكرة كثيرة ، وتعجَّبت صفاء يومها كيف أتدخل في شئونها ؟ وفي نهاية الحديث وعدتها أن أمرَّ عليها غداً في البيت لأذهب معها إلى مكتب التنسيق .

وفي اليوم التالي تعجَّلت الموعد ، واستأذنت من العمل ، وكنت أعمل في مكتب محاسبة محترم ، وذهبت إلى بيتها ، ولم يكن هناك أحد سواها ، ودخلتُ وجلست معها ، وحدثتها عن الحب والزواج ، ولم تشاركني الحديث ، ورفضت الإجابة عندما سألتها ، ودخلَتْ ثم عادَتْ ومعها بعض الأقمشة ، وحدَّثتني عنها وغيَّرت الموضوع حتى جاء أبوها ، وكنت قد أعطيتها رقم تليفون المكتب

الذي أعمل فيه قبل مجيء أبيها ، وطلبت منها أن تتصل بي قبل ذهابها إلى مكتب التنسيق هي وعفاف أختها الكبرى المتزوجة .

وفوجئت أن صفاء تتصل بي في اليوم التالي ، ولم أكن متوقعاً أن تتصل بي ، وتسألني : ماذا أقصد بكلامي معها بالأمس عن الحب والزواج . فقلت لها : إذا فهمت الكلام خيراً فهو خير ، وسوف آتي أنا ووالدي لنشرب الشاي عندكم ويتم كل شيء ، وإذا فهمت الكلام شرّاً نوقف الموضوع عند هذا الحد . واتفقت معها على ميعاد الذهاب إلى مكتب التنسيق وأنهتْ المكالمة ، وكانت تتصل بي من عند صديقة لها ، وقالت لي صديقتها بعد ذلك : إن صفاء بعد هذه المكالمة أغمى عليها أو كاد يغمى عليها وطلبت مني أن أحضر لها ماء بسكَّر من هول المفاجأة .

والتقيت بصفاء في مكتب التنسيق قبل أن تأتي عفاف وتكلَّمت معها وصرحت لها بحبي ، وجاءت عفاف بعد ذلك ، وأنهينا إجراءات التقديم .

وبعد ذلك فوجئت أن عفاف تتصل بي وتطلب مني مقابلتها ؛ وعندما التقيت بها فوجئت بأن صفاء قد حكت لها كلَّ شيء ، وسألتني عفاف عن قصدي بكلامي مع صفاء ، وتصببت عَرَقاً من هول المفاجأة ، وأبديت حسن النية ، وطلَبَتْ عفاف مني أن

أتقدَّم إلى أبيها ، وسوف تقوم هي بإنهاء كلِّ شيء ؛ لذا أبِي يقول لي دائماً إن عفاف هي التي ورَّطتني في هذه الخطوبة .

المهم ذهبت إلى أبيها بمفردي ، وأبديت له الرغبة في خطبة صفاء ، وكانت عفاف قد أخبرتني قبل ذلك أن أباها غير موافق لأن صفاء في رأيه ما زالت صغيرة ، وأن أيَّ قرار تتخذه الآن يمكن أن تتراجع عنه عندما تكبر ، وكرَّر أبوها لي نفس الكلام ، وأصررت على طلبي وقراءة الفاتحة على أن يتم الزواج بعد تخرُّجها من الجامعة .

وبسبب إصرار صفاء التي امتنعت عن الطعام لتجبر أباها على الموافقة على الخطوبة وافق الأب ، واتَّفق معي على أنه لن يتدخَّل في أي شيء .. لا في جهاز ، ولا غيره ، رغم أنه مهندس كبير ميسور الحال ، وليس عنده إلا صفاء وابن صغير في الصف الثالث الابتدائي ، وعفاف المتزوجة ، ووافقت على شرط أبيها ، وعندما حكيت لأبي ما تمَّ بيني وبين والد صفاء اعترض بشدة ، وقال : لقد ضحكوا عليك ، وورَّطوك في هذه الخطوبة ، وأفهمت أبي أنني المسئول عن حياتي ومستقبلي ، ولا أريد منه إلا أن يذهب معي ويشرب الشاي مع أبيها فقط .

قلتُ لأسامة :أبوك أيضاً رفض أن يساعدك.. كيف تتزوج إذن؟

فقال : سبق أن قلت لك أني كنتُ أعمل من سنوات في أكثر من عمل وأعتمد على نفسي ، وهذا سر تأخري الدراسي ، المهم ذهب أبي معي وشرب الشاي مع أبيها ، وحاول أن يناقش والد صفاء في ضرورة المشاركة في تجهيز ابنته ، وألا يلقي بالحِمل كله عليَّ ، وأنه قد زوَّج أختي ودفع دم قلبه في زواجها فكيف يرفض أبو صفاء مساعدتي في الجهاز ، وتدخَّلت في الحوار وأصررتُ على تحمُّل كلِّ النفقات ، وطلبت من والدي أن ينهي الحديث في هذا الموضوع ، ولا يفتحه مرة ثانية .

وحددتُ ميعاد الشبكة بعد شهرين ، ولم يكن يومها معي شيء من ثمن الشَّبْكَة ، وحاولت صفاء أن تقنعني أن نؤجل ميعاد الشَّبْكَة ، وأن أعطي نفسي فرصة أكبر لتدبير ثمن الشَّبْكَة ، وتكاليف الفرح ، لكني أصررت على الميعاد ، وبدأت أعمل ، وأستدين حتى أفي بما وعدت ، وخلال هذه الفترة كنت أقابل صفاء في الجامعة وأخرج معها ، دون علم أبيها ، ذهبنا إلى أماكن كثيرة ، وحاولت صفاء أن تسنيني عن موضوع الفرح تخفيفاً عني بعض الأعباء المادية ، ولكني أصررت على الفرح .

وبالفعل اشتريت لها فستان الفرح وحذاء .. كل ذلك من محل العروسة في وسط البلد .

وفي يوم الأيام حدث خلاف كبير بيني وبين صفاء حول هذا الموضوع ، حيث كان من رأي صفاء عدم إنفاق المال في أشياء عديمة الجدوى فبدلاً من شراء فستان فرح تستعيره من أختها وأشتري لها ذهباً بالثمن الذي سأدفعه فيه ، وقبل الفرح بيومين اتفقت مع صفاء على أن نذهب معاً لشراء لتاج تلبسه في الفرح ، كان الميعاد الساعة التاسعة صباحاً ، ولم تأت إلا في الحادية عشرة والنصف ، وبينما كنا نسير على كبري الجامعة أخبرتني بعدم رغبتها في الذهاب معي إلى وسط البلد ، وأنها تريد أن تعود إلى البيت ، فثرت عليها وهدَّدتها إما أن تأتي معي وإلا ألقيتها من فوق الكبري في البحر .

– أكيد كنت تمزح ؟

– لا .. لم أكن أمزح .. كنت جادّاً ، وتشاجرنا وتجمَّع حولنا الناس ، وفي النهاية تصالحنا ، وذهبنا إلى وسط البلد واشترينا التاج .

يوم الفرح تعبت تعباً شديداً ؛ فقد اتفقت مع ثلاثة من أصدقائي على أن يأتوا بسياراتهم ، واستأجرت سيارة لمدة يوم كامل ، واتفقت مع فرقتي زفة كان أخواي عضوين فيهما ، وعلَّقت النور بنفسي ، واشتريت " بوكيه " ورد كبيراً ، ووضعت تسجيلاً كبيراً

بسماعات في البلكونة وأدرت شرائط كاست أفراح اشتريتها مخصوص منها شريط أفراح سمسميَّة ، ودبَّرت عدة كاميرات تصوير ، أما أبو العروسة فلم يفعل شيئاً على الإطلاق بل ذهب إلى عمله ككل يوم ، وعاد ودخل حجرته ونام حتى الساعة السادسة كعادته ، ولم يسأل عن شيء غير السيارة التي سأركبها أنا وصفاء !!

قبل أن أُلْبس صفاء الشبكة قبَّلت يدها ؛ فخجلت جداً ، وبعد أن ألبستها الشبكة قبَّلت رأسها ، وهي في غاية الكسوف ، وبعد الفرح استأذنت أباها في رغبتي أن أقرا الفاتحة في سيدنا الحسين فسمح لي ، وذهبت أنا وصفاء وأختي وزوجها والمصوِّر ، وهو أحد أصدقائي إلى كبري ٦ أكتوبر حيث كان هناك عروسان يلتقطان عدة صور ، والتُقِطَتْ لنا عدة صور على الكبري ثم ذهبنا جميعاً إلى كازينو ، وأمضينا سهرتنا هناك تلك السهرة التي كلَّفتني مبلغاً كبيراً .. لقد كنت أعاند أبي وكل المعارضين لخطوبتي من صفاء وتَوْقِيت هذه الخطوبة .

بعد ذلك فُصِلْتُ من عملي ، وأمضيت أياماً سوداء بلا عمل ، ووقفت صفاء بجانبي ، وأنا أذكر لها هذا الجميل الكبير ، وعرضَتْ عليَّ أن تعطي دروساً للتلاميذ الصغار لتساعدني ، ورفضت ... " .

مرَّت بي زوجتي وهي تحمل طبق الغسيل الكبير الذي كانت تنادي عليَّ دائماً لأحمله وأضعه لها في البلكونة وقالت : طبعاً أصبحت الآن أديباً كبيراً ، ولم يعد حمل الغسيل يتناسب مع سيادتك !

هممت أن أقوم وأحمل عنها طبق الغسيل ، ولكني وجدتها فرصة أن أسقط عني أحد أعبائي المنزلية الكثيرة ، وعاودت الكتابة .

" ومرَّت السنوات سريعاً واستطعت تجهيز الشقة وتدبير كل ما يلزم وننوي إن شاء الله أن يتم الزفاف في عيد الأضحى القادم ، وإن رفض أبوها أن يأخذ إجازة من عمله في السعودية .

– كيف يتم الزواج في غياب أبيها ؟!

– هذا ما اتفقنا عليه أنا وصفاء ، وننوي عمله .

طلب مني أسامة أن أعطيه كشكول مذكراتي الذي كان معي فلما أحسَّ ترددي قال : أنا لن أقرأ منه شيئاً فقط سأكتب لك إحدى قصائدي في صفاء كتبتها فيها بعد إحدى مشاجراتنا الكثيرة ربما ساعدتك في كتابة قصتي معها .

أعطيت أسامة الكشكول والقلم ، ففتح الغلاف الخلفي وكتب في آخر صفحة بخط يده :

تكلمتي كثيراً فاتركيني
جرحت قلبي ولم تداويني
مات الحنين أتسمعيني ؟
ومِت أنت مع الحنين
فأنا في الجحيم وأنت لا تدرين
ماذا يعتريني ؟
لا تسأليني كيف قصتنا .
انتهت .. لا تسأليني
هي قصة الأعصاب والجنون
مرت فلا تتذكري وجهي
لا تتذكريني
إن تذكرتيه فاذكري
تاريخ سخفك في عيوني
لا تطلبي دمعتي فأنا
شاب يعيش بلا جفون
حاولت أن أعطيك من نفسي
ومن نور اليقين
فسخرت من جهدي
ومن حبي الكبير

يا حبي الأكبر لا تبكي

فدموعك (كلمة لم أستطع قراءتها لسوء خط أسامة) وجدانها

فانا لا أملك إلا عينيك وأحزاني

أأقول أحبك يا قمري

آهٍ لو كان بإمكاني

.....

كتبتُ هذه الكلمات منذ زمن بعيد قبل أن أعيش زمن الطغيان ، ولكنها مع غيرها كل ما تبقى من زمن الحب والطهارة والرقة ، ومعها أعيش بعض اللحظات السعيدة جداً .

محاسب / أسامة ...

١/٥ / ... أم خشيب

قرأت ما كتبه أسامة وحمدت الله أنه لم يسألني عن رأيي فيما كتب ، ولاحظت أن ما كتبه أسفل ما يسميه قصيدة فيه حنين إلى أيام حبه لهدى حبه الأول التي كانت تسكن أمام بيته قبل أن تدخل في مجال التمثيل وتصبح ممثلة والتي كانت السبب في تغيير مسيرة حياته من طالب رقيق المشاعر لا يشغله إلا حبه ومستقبله مع حبيبته إلى شاب لا يهمه إلا كسب المال من أي وجه ولا بأي طريقة كما ذكرت ذلك بشيء من التفصيل في روايتي الأولى " مذكرات أديب مغمور " .

وبالطبع القارئ العزيز قد فهم لماذا لم أكتب اسم أسامة كاملاً ولا السنة في التاريخ الذي كتبه ، وفي جميع التواريخ التي كتبتها في روايتي الأولى وهذه الرواية ؛ فقد ذكرت في الكتاب الأول " واعذرني عزيزي القارئ في عدم ذكر العام لأن هذه المذكرات لا أدري متى تنتشر ، إن نشرت، فلا أريد من القارئ أن يهملها لتقادم زمنها ، إن نشرت في زمان متأخر " .

في أول خدمة لي بعد ذلك فكرَّت طويلاً في حكاية أسامة ، وكتبت قصة " زمن الطغيان " وكنت أحس أنها ضعيفة ، وأن أسامة لن يعجب بها إعجابه بقصصي الأخرى ، وعندما قرأتها على الباجوري (بطل قصص : الأماني ، وسُنَّة الحياة ، والنهاية) قال إنها أقل من قصصي الأخرى ، وإن كنت أشك في أنه فهمها، وقلت له إن مضمون القصة جميل لكن أسلوبها ليس كذلك ، وانفردت بأسامة وقرأت عليه القصة التي في اعتقادي هي دليل إدانة له فهي تبرر لماذا أحبته صفاء ، رغم سوء طبعه وخلقه وذلك لأنه أول حب في حياتها ، وفوجئت بعد قراءة القصة أن أسامة قد أعجب بها جداً جداً جداً وقال إنها جسَّدت كلَّ حياته أو أهم مواقف فيها ، وصوَّرت هذا الموقف تصويراً رائعاً جداً ، وأخذ يثني على أسلوبي الذي يعجز وهو الشاعر السابق عن أن يأتي بمثله . "

ولن أنشر قصة " زمن الطغيان " فقد سبق نشرها في روايتي الأولى .

أتركك الآن عزيزي القارئ لأتناول العشاء والنوم فعندي عمل مهم غداً ولا ينبغي أن أتأخر عليه .

***

٤

هأنذا أواصل حكايات زملائي في سيناء بعدما عملت مع شريف واجبه ، وساعدت زوجتي في بعض أعمال المنزل التي طلبتها مني ، وعملت فنجان القهوة الذي سعدت بتعودي عليه .

" في عصر الجمعة ٥/٤ فرشنا البطاطين أنا وراغب (بطل قصة غروب وشروق) وجلسنا في ظهر ف ٢ ، وبعد حديث قصير عن أحوال السرية طلب مني راغب أن أقرأ له شيئاً من قصصي فقرأت له قصة " في الطريق" قصة نور ، وبالطبع لم أذكر له اسم بطل القصة الحقيقي ، ولم يسألني راغب عنه فالحقيقة أن الزملاء كانوا يعتبرون ما أقرأه عليهم من قصص كالقصص المنشورة التي يقرءونها ، ويكتفون بالتعليق عليها ، ولا يسألون المؤلف عن البطل الحقيقي ، المهم أعجب راغب بالقصة، وطلب مني أن أقرأ عليه قصة أخرى ، وأنا أبحث له عن قصة جاء حسام وجلس معنا قرأت عليهما قصة " رحلة كل الناس " .

رحلة كل الناس

جلس على شاطئ البحر ، يتأمل المياه الزرقاء .. الرمال الصفراء .. يتابع الأطفال وهم يلعبون .. ويبنون بيوتاً على الرمال، في نفس هذا المكان رآها .. (جميلة كالأميرات ، بريئة كالأطفال ، رقيقة كالنسمات ، مستحيلة كالأمنيات) .

أحبها من أول نظرة التقت عيناهما ثم :

(طارت كعصفور صغير ، وذهبت كشمس الأصيل ، ومضت كالحلم الجميل) .

يتمنى أن يراها ثانية ، منذ ساعات يجلس في نفس المكان الذي رآها فيه أول مرة .

(هل هي من سكان الإسكندرية ؟ أم من المصطافين ؟ هل انتهت مدة إقامتها ؟ هل ستعود العام القادم ؟ لا أستطيع أن أنسى صورتها الجميلة .. ما أجمل الحب ! بل ما أعجب الحياة ! كيف أنسى إيمان التي كانت كل حياتي ، وكثيراً ما جلستُ في نفس هذا المكان أفكِّر فيها ، وأحلم بمستقبلنا السعيد معاً ، ومن يدري ربما لولا أُمَّها ما فكَّرت في غيرها ، ما فكَّرت في عزة حبيبتي الصغيرة ، خطاباتها ما زالت تؤنس وحشتي ، عبيرها ما زال ينعشني ، وهواؤها يخفف عني حر الصيف ، لا أدري عندما أذكرها الآن أحس أنها قريبة مني لدرجة أني لا أشتاق إليها .. ما لي أتذكَّر هذه المواضيع القديمة الآن ، هذه المواضيع التي من أجلها حملت حقائب السفر .. أشعر بفراغ كبير إلى من تشاركني حب الغروب ، والبحر ، والرمال ، أحتاج إلى أن أُحَب ، وأفرح كالأطفال عندما ألقاها ، وأسهر الليل أفكِّر فيها عندما نفترق ، كنت مع إيمان هكذا) .

لقد تأخَرَت كثيراً ، الشمس غابت ، وابتلعها الظلام ، والبحر بعد الهياج سكن ونام ، عاد يتسكع في الطرقات ، يحدِّق في الفتيات ، وحيد يمنِّي نفسه بالبسمات ، يحس أن الكلَّ يشفق عليه ، يسخر منه ، عاد يقلِّب في الخطابات .

(عطر الحبيبة بدَّده هواء السفر ، والكلمات الرقيقات على الأوراق تحتضر) .

حزم أمتعته وقرر السفر .

***

في منتصف القصة ابتسم حسام (بطل قصة الأسئلة الحيرى) وقاطعني قائلاً : " لقد استفدت كثيراً من كلامي معك ، لكني لم أقل لك كل هذه التفاصيل فكيف عرفتها ؟! " .

وبعد أن انتهيت من قراءة القصة طلبتُ منهما أن يذكرا لي رأيهما ، فأبدى راغب إعجابه بها ، وقال إنها من القصص الممتازة ، كبقية قصصي الأخرى ، وأعجب بها حسام جداً ولكنه طلب مني أن أكمل بقية القصة ، وأذكر إلى أين سيسافر البطل ؟ وعندما طلبت من حسام أن يجيب هو عن سؤاله . قال راغب : إنه سيترك البلد ويترك هذه المعابثات ويلتفت لنفسه " وأكَّد حسام

هذا ، وأضاف : إن البطل في القصة الحقيقية عاد إلى الفتاة الثانية عزة في القصة .

وشرحت لهما كيف أني كتبت هذه القصة على مراحل عديدة وأنها تمثل أسوأ قصة كتبتها وأني قد أُكْرِهت على كتابتها فقد تحديت أحد الزملاء في كتبتها ، وهو شخصية غير محبوبة بالنسبة لي ، وكلما تذكَّرت أنه هو البطل أكف عن الكتابة .

المهم أن القصة قد فتحت موضوعاً مُهمّاً وهو موقف البطل من البطلة التي كلما اقتربت منه ينفر منها ، وأكَّد حسام أن الشجار والنزاع والمد والجزر هو الذي يقوِّي العلاقة ، وأن الحب الراكد الخالي من الشجار ينتهي بسرعة ، ويتمنَّى أن تكون زوجته غيورة عليه ، ويتشاجران كثيراً ويتصالحان .

ولاحظت أن راغباً قد اهتمَّ بهذا الموضوع اهتماماً ملحوظاً ؛ إذ قال : " إذا كانت هناك فتاة تلبِّي كلِّ رغباتك ، ولا تناقشك في شيء وتسمع الكلام ، وعندما عرضوا عليها الزواج من إنسان مناسب رفضته بدعوى أنه لم يتحدَّث معها أولاً ، وتكلَّم مع والدتها مباشرة ، ثم فوجئ إنها خطبت لشخص آخر أكثر غنى وأقل علماً وثقافة من الأول " .

وسيطر عليَّ إحساس أن راغباً يعني نفسه وحكايته مع بنت خالته حنان التي رفضته وقالت له : إن زواج الأقارب غير موفَّق.

ولعلك عزيزي القارئ تريد أن تعرف بطل قصة " رحلة كل الناس " الحقيقي ، وأصل الحكاية ، وعلاقتها بحسام الذي ظن..."

- ماما تقول لك : خرَّج " الزبالة " .

أسرعت لكي أخرج القُمامة وأضعها في السلة خارج الشقة ، ولم أنتبه إلى ما يسيل منها ويسقط على الأرض والسجاد ، ورأت زوجتي ما حدث ، وأجارك الله مما حدث ، إن ما حدث لا يُحْكَى ولا يُقَال ...

***

٥

هأنذا أعود لمواصلة الكتابة بعد أن ظللت ثلاثة أيام كاملة أزيل فيها آثار العدوان ، وأنت عزيزي القارئ في شوق لمعرفة ماذا حدث في هذه الأيام الثلاثة الماضية ، ولكن ألتمس العذر منك أو كما يقول الكُتَّاب الكبار أستميحك عذراً في عدم ذكر أي شيء عنها فهذه أسرار بيوت ، والله حليم ستَّار ، إنما سأحدثك عن القصة الحقيقة التي استوحيت منها قصة " رحلة كل الناس ".

" ٤/٢٦ / ... ذهبت أنا وشريف لنحضر تعيين العشاء بعد المغرب من ك١١٦ وفي أثناء عودتنا قال لي : إنه عندما كان في الإسكندرية في الصيف الماضي رأى فتاة وأعجب بها ، وأحسَّ أنها أُعجبت به ، ولم يتكلَّم معها ، وإنما فقط عرف الشارع الذي تسكن فيه ، وهي تسكن في كيلوباترا ومنذ رآها وهو يتمنَّى لو رآها مرة ثانية ، وقال لى : إنه كان يعرف غيرها وخطا معها خطوات كبيرة ثم تركها أو ضعفت الرغبة عنده في مواصلة العلاقة .

هذا ملخص ما قاله لي شريف حتى وصلنا السرية ، ووعدته أن أكمل معه هذا الموضوع في الصباح ، وقمت بتوزيع التعيين ، وتناولت العشاء في مطبخ ف ١ وتسامرت بعض الوقت مع

أسامة ، والباجوري ، وحسام قبل الذهاب إلى الخدمة وقد كان عندي خدمة ثانية بوابة .

وفي اليوم التالي ، بعد الغداء ، ذهبت إلى ف ٣ حيث محل نومي فوجدت شريفاً مستلقياً على سريره فسألته : هل ما تزال تفكِّر في السفر إلى الإسكندرية ؟

وكان مضطجعاً فجلس وطلب مني الجلوس على سريره ... "

سمعت طرقاً على باب الشقة ، وتعجبت من هذا الطارق لماذا لا يضرب الجرس ؟! وذهبت لأفتح الباب ، وإذا بها صديقة زوجتي الحميمة ، وفرحت أنها ستشغل زوجتي عني ليس أقل من ساعتين أكون قد أكملت فيها حكاية شريف ، ولكني فوجئت بزوجتي تنادي عليَّ وتطلب مني فحص جرس الباب ومعرفة سبب عطله .. يا فرحة ما تمت .

أحضرت السلم من البلكونة ومسحته أولاً حتى لا يتسخ السجاد الذي ظللت ثلاثة أيام ... المهم صعدت إلى الجرس حيث فكَّرت في البدء في فحصة فإن كان سليماً ، يكون العطل من المفتاح أو السلك ، أحضرت سلك كهرباء بِدَوَايَة وركَّبت فيه مصباحاً ووصَّلته بدلاً من جرس الباب وضغطت على زر جرس الباب من خارج الشقة فأضاء المصباح .. العُطل إذن سببه الجرس نفسه ،

فككتُ الجرس وشممته ؛ لأعرفَ إن كان هناك شيء احترق فيه ، ولم أجد رائحة احتراق أو أثراً لاحتراق ، لم أشأ أن أضيِّع الوقت في محاولة إصلاح الجرس ، فبدَّلت ثيابي ، وقلت لزوجتي : إني نازل ؛ لأشتري جَرَساً جديداً فقالت لي : " احضر معك جُبْناً للعشاء والإفطار " .

وكتمتُ غيظي فمحل الأدوات الكهربية أمام البيت مباشرة ، وكنت قد هيَّأت نفسي أن أشتري الجَرَس وأعود بسرعة وأركِّبه ، وأعود لقصة شريف سامحه ، والله لم أكن أحب شريفاً هذا ، ولا قصته التي كتبتها عنه ، ولا اسمه ولولا إصرار زوجتي على تسمية ابننا شريفاً ما أسميته هذا الاسم ؛ فقد كنت أريد أن أسميه وجيهاً ، المهم اضطررت إلى الذهاب إلى السوق وشراء الجبن أولاً ، ثم اشتريت جرساً يصدر صوت عصافير حتى لا يزعجني ، ولا يقطع عليَّ اندماجي في كتابة الرواية الجديدة أو يفزعني أثناء نومي ، وقمت بتركيبه والحمد لله أنهيت مشكلة الجرس ، وعدت إلى الكتابة .

" أخذ شريف يكمل لي حديثه عن علاقاته العاطفية فحكى لي عن ابنة عمه هناء التي في مثل سنه وهي دبلوم تجارة ، وهو دبلوم زراعة ، وكان يحبها منذ أن كان في الصف الثاني زراعة ،

ولم يتصارحا ، فقط مجرد نظرات ، وحدث أن أرسلت هناء له مع صديقة لها تسأله عن معنى نظراته إليها فحكى لها شريف عن حبه لهناء وتعلُّقه بها ، وحكت له صديقتها عن إعجاب هناء به لكن الأمر الأول والأخير لأمِّها ، وعرف كلُّ الأهل هذا الموضوع لكن أمَّها رفضت ؛ لأسباب يرجعها شريف إلى أسباب مادية ؛ فشريف أكبر إخوته ووالده متوفى ، وتجمَّد الموضوع عند هذا الحد.

وحكى لي شريف إنه ما زال يحب هناء لكنه لم يستطع أن يكلِّمها ولا يصارحها بهذا ، وبعد هذه الحكاية أحب فتاة أخرى في نفس الشارع في الصف الثالث الإعدادي ، وخرج معها وتبادلا خطابات الحب وأعطته صورتها وتعلَّق بها لفترة ما ، ثم بدأ التعلُّق يضعف شيئاً فشيئاً ، وفي الإجازة الأخيرة وبينما هو جالس على شاطئ البحر في كليوباترا إذا بثلاث فتيات في عمر الزهور ١٥- ١٧ سنة يمررن أمامه لفتت نظرَهُ واحدة منهن ، فأدام النظر إليها ، ولاحظت هي ذلك فبدأت تبادله النظرات ، وهن يلعبن الكرة بجواره ، لاحظت صديقتاها هذا ، وبعد اللعب انصرفت الفتيات ، وما زالت النظرات من الطرفين مستمرة ، وإن كانت الابتسامة ختمت المشهد في النهاية .

اليوم التالي وفي نفس الميعاد انتظر شريف ، وجاءت فتاته من بعيد والتقت العيون وتجمَّدت كأنهما كانا على ميعاد طال انتظاره. وعندما رآه صديقتاها أشرن إليه واستمرَّت النظرات ، وبعد أن جلست الفتيات بعض الوقت على الشاطئ عُدن إلى البيت ، وتبعهن شريف ، ورآهن وهن يدخلن إحدى العمارات القريبة من الشاطئ ، وفي هذا اليوم اضْطرَّ إلى السفر لأن أجازته قد انتهت، وعاد شريف إلى الجيش ولم تفارق خياله صورة فتاة الشاطئ ؛ فقد تعلَّق بها جداً ، وهو يحلم باليوم الذي يراها ثانية ، وندم على أنه لم يكلِّمها ، وهو الذي يجيد الكلام مع الفتيات ، ومشى مع أكثر من ١٥ فتاة .

طلب مني شريف أن أحلل له هذه المشكلة فشرحت له سمات مرحلة المراهقة ، وأن حبه لهناء حب مراهقة ، ووهم حبه للفتاة التي تسكن نفس شارعه عملية تعويض لشغل الفراغ الذي خلفته هناء ، أما فتاة الشاطئ فهو قد وصل لسن ٢٢ سنة ويبحث عن فتاة تحبه ويحبها وتتجسَّد فيها أحلامه ، وعندما رأى هذه الفتاة ظن أنها هي ، وتجسَّدت فيها كلَّ أحلامه ، وكلَّ هذه العلاقات ستنتهي ، وأن أي قرار سيتخذه الآن سيكون خاطئاً فالقرار يأتي بعد أن تهدأ عواطف المراهقة ويتمكَّن من تحصيل قدر من المال يستطيع به أن يترجم علاقة الحب إلى زواج .

أقرَّ شريف بصحة كلامي ، ولاسيما قولي : إن الإنسان عندما يعمل ويدَّخر مالاً يبدأ في التفكير في الحب والزواج ، وحدثني عن أخته التي تصغره بأربع سنوات أنها قالت له ذات يوم : إنها معجبة بفتى . فقال لها : اتركي هذه المواضيع ولا تلقي لها بالاً فهي ستنتهي " وشريف – كما قال لي – صديق لكلِّ أخوته : أختين وأخ ، وجاءته أخته في اليوم التالي لتخبره أنها صرفت نظرها عن الموضوع السابق ، ولا تفكِّر الآن إلا في مذاكرتها " .

يكفي هذا اليوم ، ونكمل غداً إن شاء الله قصة حسام .

***

٦

أول أمس ذكرت ما قاله لي شريف عن علاقاته العاطفية ، وكنت أنوي بالأمس أن أقصص عليك عزيزي القارئ قصة حسام ، ونسيت أن الجمعة هو ميعاد ذهابنا الأسبوعي لأهل زوجتي، ونحن عائدون اتهمتني زوجتي أني كنت قليل الذوق مع أهلها فلم أشاركهم الحديث ، ولم أكن أضحك على مزاحهم ودعاباتهم ، وعبثاً حاولت إفهامها أني أحب أهلها ، وأحب لقاءهم لكن بالي مشغول بالرواية الجديدة ، وليتني ما قلت لها الجملة الأخيرة ، ليتني كذبت عليها ، والكذب على الزوجة مباح كما تعلم عزيزي القارئ ، ليتني قلت لها أني متعب أو عندي صداع أو أي عذر .. المهم دعنا مما حدث بالأمس ، فهذه مشاكل عادية تحدث كل يوم للمتزوجين .

سأحكي لك الآن قصة حسام :

" ٥/٥ / ... جمعتني أنا وحسام (بطل قصة الأسئلة الحيرى) جلسة جميلة حدثني فيها حديثاً ممتعاً عن الفتاة التي تعرَّف عليها في الإسكندرية والتي ظنَّ أن قصة رحلة كل الناس مكتوبة فيها ، وتحدَّث بإسهاب وهو سعيد ، وكلما قُطِع الكلام لسبب أو آخر وصله ، كانت ذكرى عزيزة على قلبه جداً قال لي : إنه في العام

الماضي سافر إلى الإسكندرية ، وكان يجلس على شاطئ ميامي مرتدياً بنطلوناً أبيض جميلاً ، وفانلة بيضاء ، ونظارة شمس جميلة ، وبينما هو جالس على الشاطئ فوجئ بفتاتين في السابعة عشرة أو الثامنة عشرة من عمرهما تنظران إليه وتتهامسان ، استمرَّ هذا الأمر فترة ، ثم قالت إحداهما للأخرى : اسأليه عن اسمه ، وابتسم وقرَّب كرسيِّه منهما بعض الشيء لأن والدي إحداهما كانا موجدين على الشاطئ وإن كانا ينظران إلى جهة أخرى ولا يريان ما كان من حسام والفتاتين ، تبادل حسام مع الفتاتين حديثاً عاماً عن الاسم ، والدراسة ، والسكن.

أعجب حسام بإحداهما واسمها منى وطلب منها أن يراها بمفردها حتى يكونا على راحتهما ، قالت له منى : إنها لا تستطيع أن تفعل ذلك في وجود والدي رحاب صديقتها ، وطلبت منه أن ينزل معها هي ورحاب البحر ، ورفض لأنه ملَّ منه ، وسألها عن مكان نزولها ، فقالت له : شارع خالد بن الوليد ، ولم تستطع أن تحدِّد له مكان مسكنها بدقَّة لأنها لم تنزل به إلا بالأمس فقط ؛ فاقترح عليها أن يسير وراءهم وهم عائدون ليعرف العمارة ، وبالفعل سار وراءهم لكنه شغل ببعض أصدقائه فتاهوا منه ، وبحث عنهم في شارع خالد بن الوليد طولاً وعرضاً ، وإذا به فجأة يرى منى وهي تشير إليه من بلكونة إحدى العمارات ، وبهذا

عرف عمارة منى وشقتها ، وظلَّ أياماً يذهب إلى نفس المكان على شاطئ ميامي ليراها رغم معارضة أصدقائه له ، ورفض منى أن تخرج معه .

ورآها ذات مرة وهي واقفة في البلكونة فأشار إليها أن تنزل فرفضت فهدَّدها إن هي لم تنزل فسيصعد هو إليها ، وبالفعل صعد إليها ، وقابلته على السلم ، وطلبت منه أن ينزل لأنها تخشى أن يراهما أحد فقال لها : " لا تخافي سأقول ساعتها له إنني أبحث عن شقة " تكلَّم معها بعض الوقت وأبدى إعجابه بها، وسألته عن غرضه من الكلام معها ، وآخره فقال لها : إنه لا يستطيع أن يَعِدَها بشيء ؛ فهو مُتخرِّج حديثاً ، وأمامه مشوار طويل ، وأعطته رقم تليفونها وعنوان سكنها في المهندسين ، ثم قالت له : " أنا سامعة واحد طالع على السلم " فنزل بسرعة ، ولم يكن هناك أحد .

وانتهت مدة إقامة حسام في الإسكندرية وكان عليه أن يعود للقاهرة فكتب لها خطاباً حاراً جداً كحر شهر أغسطس ، وأعطاه لها ، وكان الخطاب يتضمن ميعاداً عند مدرستها مدرسة الأوقاف في المهندسين .

وعندما عادت بدأ يتصل بها مباشرة أو بصديقتها رحاب التي كانت معها في المصيف وتعرف كلَّ شيء .

واتفقا على اللقاء ، والتقى بها عند مدرستها ، وكانت ذاهبة إلى المدرسة لكي تستلم الكتب المدرسية للصف الثالث الثانوي ، وسارا سوياً ، وسألته مرة ثانية عن آخر هذا الموضوع ، وكرَّر لها أنه لا يستطيع أن يعدها بشيء ، ورفضت أن تدخل معه "كازينو" أو تجلس معه .

وظلَّ يتصل بها ويطلب منها مقابلته مرة أخرى ، وهي ترفض في كل مرة يطلب منها ذلك ، وأخيراً وافقت على أن تقابله في نادي الترسانة ، وخاف أن تعرَّفه على أسرتها ، ويتورَّط في خطوبة وهو ليس مستعداً ، وقال لها :

- إياك أن تقولي لأحد شيئاً عن علاقتنا .
- لقد أخبرت أختي الكبيرة بكلِّ ما بيننا .
- أكيد قالت لك : اتركي عبث المراهقين هذا ، وركزي في دراستك ، أو شيئاً من هذا الكلام .
- هذا بالضبط ما قالته لي .
- ألم أقل لك لا تحكي هذا الموضوع لأحد ؟!

قلتُ لحسام : وماذا تمَّ بعد ذلك ؟

- لا شيء ؛ فقد تجمَّد الموضوع عند هذا الحد لأني دخلت الجيش .
- هل تحبها ؟

– نعم .. لكن إذا وجدت واحدة أفضل منها سأتركها ، وأتزوجها فأنا لن أتزوج إلا بعد أن أستكمل جميع الكماليات .

وتحدَّث حسام بعد ذلك عن بعض مغامراته في الإسكندرية ، وكيف أنه كان يسير وفوجئ ببعض الفتيات يقفن في أحد البلكونات ، ورمته إحداهن بحصاة صغيرة وهو يسير مع أخته الصغيرة وأخذت البنات يتكلَّمن مع أخته وعرفن منها اسمه ، وتوطَّدت العلاقة بينه وبين إحداهن ، وتمكَّن من السير معها ، وكانت فتاة جميلة ذات عينين خضراوين .

كان حسام يحدثني في هذا الموضوع وأنا في نشوة وسعادة لأن الحديث عن الإسكندرية في الصيف له طعم خاص عندي ، وأحب كلَّ الأغاني التي تتكلَّم عن الإسكندرية ، وأنا متيَّم بأغنية أنغام " أهواك يا هوا المصايف " إلى جانب أغنية " في الركن البعيد الهادي " .

أخرجني صوت التليفزيون العالي من الركن البعيد الهادئ ؛ فقد حان موعد المسلسل الذي تحرص زوجتي على مشاهدته .

فأستأذنك عزيزي القارئ في التوقف عن الحديث عن الشباب وهوى المصايف وبنات الإسكندرية ، ونعود إلى القاهرة ، وتلوثها وضوضائها ، ومشاكلها .

فإن كنت عزيزي القارئ ما زالت شاباً فهنيئاً لك بالركن البعيد الهادئ ، وهوى المصايف ، وإن كنت مثلي فأعانك الله على تحمُّل تلوث وضوضاء ومشاكل القاهرة .

أنت تفهم ما أقصد بالطبع عزيزي القارئ .

* * *

٧

هأنذا أعود إليك عزيزي القارئ لأسعد معك بذكرياتي الجميلة .. ذكريات الشباب ، وأيام الشباب التي لا تعود ، والتي أصبحت مصدر السعادة الوحيد ؛ فالعمل كله مشاكل فكما تعلم عزيزي القارئ فأنا أعمل محقِّقاً قانونياً في إدارة دار السلام التعليمية ، وأمضي يومي في التحقيق في مشاكل المدرسين والإداريين والعمال ، وعندما أعود إلى البيت أمضي معظم الوقت في مشا .. دعنا من الحديث عن البيت وسأحدثكم عن مشكلة اليوم التي كنت أحقِّق فيها وهي أن مُدَرِّسيْن تشاجرا على رئاسة قسم اللغة العربية، واحد طويل عريض ضخم ، والآخر قصير نحيف ورغم أن الحقَّ في رئاسة القسم للقصير لأنه أقدم تعييناً إلا أن الضخم استولى على رئاسة القسم عُنْوة ووضع امتحان نصف العام ، ولم يكتف بذلك بل جاء بهذا البيت في سؤال البلاغة :

نحن العماليق والدنيا تساندنا * هيهات ما يستوي العملاق والقزم

وأحسن المدرس الآخر أن زميله يعرِّض به فتشاجر معه ، وطلب مدير المدرسة الشئون القانونية بالإدارة لتتولى التحقيق ، وأمضيت اليوم كله في سماع طرفي المشكلة وشهادة الشهود ، ومن الطرائف إني عندما سألت أحد زملاء المدرسيْن عن رأيه ،

وعلى أي المدرسيْن يقع الخطأ ؟ قال ، لقد أخطأ الأستاذ واضع الامتحان ، سألته عن خطأ هذا الأستاذ فقال : لأن النص الصحيح للبيت الذي ذكره في سؤال البلاغة هو :

كَانُوا العَمَالِيقَ وَالدُّنْيَا تُسَانِدُهُم * هَيْهَاتَ مَا يَسْتَوِي العِمْلاقُ وَالقَزَمُ

المهم دعنا من مشاكل العمل ونعود للحديث عن الذكريات وحكايات زملاء الجيش .

" ٥/٦ / ... قال نور : عندما كنت في العراق في إحدى إجازات الجامعة تعرَّفت على رجل مصري يعمل كهربائياً ، وكان متديناً لا يترك فرضاً ولا سنة ، وطول لحيته شِبْران ، وكان ينصحني بالاستقامة والصلاة بعكس كثير من المصريين الغارقين في الشراب والنساء ، وانتهت الإجازة وعدت إلى مصر وواظبت على الدارسة ، وفي إجازة العام التالي عندما سافرت إلى العراق فوجئت ... "

- بابا .. بابا .. كلِّم ماما .

- ماذا تريد ؟!

- لا أعرف .. هي قالت لي : نادِ بابا .

تُرَى عزيزي القارئ ماذا كانت تريد زوجتي ؟

لقد طلبت مني زوجتي العزيزة أن أقف على البوتاجاز لمتابعة اللبن ، ليس مُهمّاً عندها أن يفور دمي ولكن لا يفور اللبن !

المهم نعود لحكاية نور : " وعندما سافرت إلى العراق فوجئت أن صديقي هذا قد حلق لحيته ، وأسرف في الشراب والنساء ، وعندما سألته عن سبب هذا التغيير قال لي : عندما نزل إجازة العام الماضي نزل ضيفاً عند أحد أقاربه في القاهرة وأعجب بابنته وبادلته البنت نفس الإعجاب ولم تنقض الأيام العشرة التي قضاها عند قريبه هذا حتى خطب هذه البنت ، وبعدها عاد إلى العراق لاستكمال عمله وتجهيز نفسه لإتمام الزواج ، ولم يمض شهر على سفره حتى بدأت خطابات من مجهول تصله ، تطعن خطيبته في شرفها ، وسوء أخلاقها !! في البداية اعتبر هذه الخطابات كَيْديَّة من إنسان حقود ، ولكن فوجئ بأن هذه الخطابات تتضمَّن ذكر تفاصيل لا يعلمها إلا هو وخطيبته فقط . حاولتُ أن أفهمه أن خطيبته بريئة ، وأن المعلومات التي وصلته إنما عرفها إنسان حقود من ثرثرة خطيبته مع إحدى صديقاتها ، ولم يقتنع الرجل ، وأرسل معي خطاباً ومبلغاً من المال ، واستحلفني أن أذهب إلى خطيبته وأعطاني عنوانها في عين شمس ، وأوصاني أن أذهب إليها في الصباح حيث تكون

بمفردها، وعدت إلى مصر ، وفي اليوم التالي ذهبت إليها ، ووجدت أباها معها وتحدثت معهما ، وذكرتُ لخطيبته أن سميراً خطيبها كان ينتظر منها أن ترسل له خطاباً ، وذكَرَتْ : إنه هو الذي ... لم تَذْكُر شيئاً عن اتهاماته لها وشكِّه في سلوكها ، ثم انفجرت في البكاء ، وخجلتُ جداً ، وتأكَّد لي صدقها وبراءتها فأعطيتها المال الذي أرسله لها سمير وخطابه ، وفي نفس اليوم أرسلت له خطاباً لأطمئنه فيه على خطيبته ، وأرسل لي سمير خطاباً ردَاً على خطابي وشكرني " .

انفعلت بالموضوع جداً وقمت فأحضرت كراستي بسرعة وكتبت هذه القصة .

العالم المجهول

- (ماذا لو كانت فتاة لعوباً ؟ .. ستكون بمفردها .. ماذا يمكن أن يحدث ؟ .. لقد استأمنني على هذا السر .. كان يغرق ، لم يجد غيري .. هل أكتب له ؟ .. لقد أقسمت له أني سأرسل له فور تأكدي من صحة الأخبار التي وصلته .. صدَّق ما سمع ، بدأ يغرق في بحر من الشكوك .. كاد يموت .. خلعتُ مشاغلي وغصت وراءه .. في الغربة كلنا إخوة .. تجمعنا هموم واحدة .. بدأ يلتقط أنفاسه ، ويتقيأ ما في جوفه من هموم .. حان موعد

سفري .. عودتي إلى أرض الوطن .. استحلفني أن أقوم عنه بهذه المهمة .. الحيرة التي كانت في عينيه انتزعتني من أحضان أهلي في اليوم الثاني .. لم أواجه في حياتي موقفاً مثل هذا .. الشيء الوحيد الذي يقلقني حقاً ، كيف أعرف الحقيقة ؟ النساء عالم مجهول .. أخشى الاقتراب من أسواره .. سمعت كثيراً عنه .. عالم المكر والدهاء .. عالم الطهر والصفاء .. ملك انجلترا تخلَّى عن العرش من أجل امرأة ، واعتزل الرهبان النساء .. عالم غريب غريب . لو لم أره يبكي كالأطفال ما ذهبت إليها) .

اقترب من بائع جرائد :

– أين رقم ٤٣ شارع عوني ؟

–هذا هو شارع عوني ، ورقم ٤٣ في نهاية الشارع . من تريد ؟

– شكراً .

– (يبدو أنه يعرف العنوان جيداً ؛ أ يكون من المترددين عليه؟ لقد حكي لي عامر أن أكثر من شخص رآها وهي برفقة شاب ، وأقسموا له في خطاباتهم غير الموقَّعة على صدق هذا ، وحكوا له عن أشياء قالتها ولا يعرفها سواهما) .

توقَّف عن السير وبدأ يفكِّر في العودة ، ويرسل له مؤكِّداً صحة الأخبار التي وصلته ، أو لا يرسل له على الإطلاق .. تذكَّر الموت الرابض في عينيه .

- (لابد من تكملة المشاور ، والتأكُّد من هذا الأمر بنفسي ، لقد وعدته بهذا وأقسمت على هذا) .

وقف أمام البيت .. رفع بصره .. وصل إلى الدور الثالث .. الشبابيك موصدة . خشي ألا يجد أحداً . تحسَّس الخطاب الذي معه .. صعد السلم يقدِّم رجلاً ويؤخِّر أخرى .. وقف أمام الباب .. تفحَّصه بدقة .. دقَّ قلبه بعنف .. احتشدت في رأسه كلُّ الأحداث دفعة واحدة .. هزَّ رأسه ، وأخذ نفساً عميقاً كأنه يريد أن يستيقظ من كابوس مُقْبِض .

طرق الباب .. ازدادت دقات قلبه .

- (سأقول لها : إنني .. إنني من طرف عامر ، وأرسل معي خطاباً .. هذه هي البداية .. يجب أن أتماسك ، وأتصرَّف بحكمة فالموقف خطير) .

فتحت الباب .. تجمَّد عندما رآها بملابسها المثيرة .

- ماذا تريد حضرتك ؟

- أنا ...

جفَّ حلقه .

- أنا جمال صَدِيق عامر .

تهلَّلت أساريرها ، وأينعت وجنتاها ، وعلى شفتيها غنَّت أحلى ابتسامة .

- تفضَّلْ .. أهلاً وسهـ ...

وفجأة كأنها تذكَّرت شيئاً ؛ فتكدَّر وجهها ، وخرست الابتسامة الجميلة ، وقالت تفضَّلْ بنبرة جافة . جَلَسَ .. قلَّب بصره في البيت .. سمع همسات مكتومة .. وأصوات أبواب تفتح وتغلق بسرعة .. فوجئ برجل في الخمسين من العمر يقول له :

- أهلاً يا بني ، أهلاً وسهلاً .

أذهلته المفاجأة .

- (من هذا ، هل هو ... ؟ أم ... ؟ وما تلك الأصوات ؟!)

- أهلاً يا بني كيف حال عامر ؟

- الحمد لله .

أحس بأن الرجل ليس لديه ما يقوله ، وأن عليه أن يفتح الموضوع بعد أن يتأكَّد من شخصية هذا الرجل .

- أنت الأستاذ رجب ؟

- نعم .. نعم .. من قال لك ؟ .. عامر .. الحياة صعبة .. الغربة أصعب .. الحياة كفاح .. سيعود بإذن الله .. يذكركم بكل خير ... ونحن كذلك .

بعد أن بدَّلت ملابسها جاءت تحمل الشاي ، وجلست على استحياء ، بدأ يقتنع ببراءتها ، توجَّه بالحديث إليها :

- لقد كلَّمني عامر عنكِ كثيراً .

أحسَّ بأنفاسها المرتعشة ، ودقات قلبها المضطربة ، واصل كلامه :

- كان ينتظر منك خطاباً ليستريح قلبه .

- هو الذي ... هو ..

وانخرطت في البكاء ، لم يخالجه شك ساعتها في طهرها .

- (مستحيل هذا الملاك الجميل يخون .)

احتقر نفسه أنه اتهمها يوماً .

نزل .. على ناصية الشارع رأى بائع الجرائد همَّ أن يعتذر له ، لكن نظراته الغريبة أثارت فيه الشك من جديد .

- (لا .. مستحيل .. لقد بكت أمامي .. ليس هناك دخان بلا نار .. لكنها بريئة لقد أحسُّست بهذا .. أرأيت ماذا كانت تلبس ؟ .. والأصوات التي سمعت ؟ .. كان أبوها يجلس معها .. هل تحقَّقت من شخصيته ؟ ..)

تلفت حوله ؛ أحسَّ أن كلَّ العيون تراقبه ، والشفاه تتهامس .. عاد إلى بيته .. أخرج ورقة بيضاء ، وأمسك بالقلم .. لا يدري ماذا يكتب ؟ .. يكتب ويمحو .. يكتب ويمحو .

- (عالم النساء غريب .. غريب)

مزَّق الأوراق ، وألق بالقلم ، وقرر أن ينسى الموضوع .

***

أرأيت عزيزي القارئ الفرق بين القصة الحقيقية والقصة الفنية ؟

هذا هو الفرق بين الصدق الواقعي والصدق الفني ، فالصدق الواقعي هو ما حدث بالضبط في الواقع ، وربما هذا الواقع لا يكون شيِّقاً ولا يجذب القارئ ، ولا يحمل رؤية لتفسير هذا الواقع، أما الصدق الفني فهو إعادة الأديب تشكيل هذا الواقع للتعبير عن رؤيته الخاصة ، كما لا بد أن تحتوي القصة القصيرة على عناصر : الوحدة ، والتشويق ، والصراع ، والحوار، والتكثيف ، والحبكة .

ليت زوجتي بل زوجات كل الأدباء يعلمن مدى المعاناة التي يعانيها الأدباء فيما يكتبون من إبداع .. إن مقياس تقدُّم ...

- سامي .. سامي .
- نعم يا حبيبتي .
- أطفئ النور .. وتعالى لتنام .
- حاضر .. يا حبيبتي .

***

٨

قرَّرتُ اليوم أن أبدأ مبكراً لأنتهي من أكبر قدر ممكن من كتابة مذكراتي وحكايات زملائي قبل أن تأمرني زوجتي بإطفاء النور كما حدث بالأمس .

" ٥/٧ ... بينما أنا في الخدمة النهارية إذا بعبده حامد المسئول عن الإشارة ذو الشعر الأبيض يعرض عليَّ أن أنزل مهمة لعمل طقم شنبر لِمَكَنَة ، ورفضت في البداية ، ثم وافقت على مضض ثم أعجبتني الفكرة ، وقلت له : أنا موافق .

بعد انتهاء الخدمة حاولت النوم ، ولم أستطع ، وجاءني عبده حامد ليخبرني أن الضابط محمد يريدني ، وذهبت إليه ، وعرض عليَّ أن ينزلني ٤٨ ساعة لكي أعمل طقم شنبر في شارع الجمهورية ، وأنا عائد من لقائي بالضابط محمد قابلني وجيه ودعاني لتأمل منظر الشَّفَق .. كان الشفق في غاية الجمال .. جمال لم أره من قبل .. أخذت أشاهد الشفق الجميل .. الجميل .. الجميل ، وراح وجيه يدعو العساكر لتأمل هذا المنظر البديع ، وكان كل من يقابلني يشير إلى الشفق فقد سَرَتْ دعوة وجيه فيهم جميعاً ، وهم يعلمون مدى حبي لهذه المناظر الخلاَّبة .

بعد العشاء ذهبت إلى الضابط محمد فأعطاني تصريح الإجازة، وأخذت من عبده حامد عيِّنة من الشنبر المراد شراء مثله،

جهزت حقيبتي ، وحاولت النوم ، ولكن طاردتني كوابيس عدم اللحاق بالجهاز صباحاً ، استيقظت في الساعة الخامسة والنصف قبل أن يوقظني أحد الواقفين خدمة وأوصيتهم جميعاً بإيقاظي ، استيقظت وأنا كلي شوق للسفر .. شوق كشوق أبناء قريتي الصبية والشباب قديماً للسفر إلى القاهرة أو إلى مصر كما كانوا يسمونها ، ولا أدري سبباً لهذا الشوق الجارف رغم أنه لم يمر عليَّ سوى ١٨ يوماً فقط بعد عودتي من الإجازة .

كان شوقي يفوق شوقي للسفر في الإجازة السابقة التي مكثت فيها أطول مدة غبتها في حياتي عن البيت وهي ٣٨ يوماً لدرجة أني أمي بكت بحرقة عندما رأتني وقالت : " وحشتني يا بني .. وحشتني .. البيت من غيرك ليس له طعم " .. وارتمت أختي الصغرى في حضني عندما عادت من المدرسة وفوجئت بوجودي وأخذت تبكي حتى أبكتني ، وعندما رفعت رأسها من فوق صدري وجدت على جلبابي الأبيض بقعة كبيرة قد ابتلَّت بدموعها الغزيرة، المهم استيقظت ، وأيقظت عبد الرحمن وأكلنا بعض الجبن ، والبسكويت الميري المملَّح ، وتكلَّمت مع زين جلال الذي يحبني جداً ، وأنا حزين لفراقه لأنه سيخرج الدفعة القادمة مع أسامة ونور وراغب وغيرهم ، تكلَّمت معه عن صداقات الجيش ، وعن احترام الإنسان نفسه واحترام الآخرين ؛ حتى تحترمه نفسه ، ويحترمه الآخرون ، وأخبرني أن الضابط مدحت يحبني أنا ووجيه .

ركبنا الجهاز وأعطيته " مجموعة عزيزتي الحقيقة " ليقرأ فيها ، وأعجب بالقصة التي تحمل المجموعة القصصية عنوانها ، ونزلت قبله لأركب جهاز مصر .

كنت أقرأ طوال الطريق في المجموعة القصصية " عودة الفنان " وكانت القصص في مجموعها ضعيفة فنياً ، والساعة الحادية عشرة بالضبط بدأت أتابع الطريق .. كانت الشمس مشرقة .. مشرقة ، وكان كل شيء جديداً ، ومبهراً بالنسبة لي : العربات الملاكي ، الناس ، المنشآت ، كل شيء كنت أراه أجد له سحراً عجيباً يجعل قلبي يخفق . الناس كلهم رائعون .. تمنيت لو نزلت من الجهاز وصافحتهم ، وأخذتهم بالأحضان رغم أني لا أعرفهم إنما كانوا يمثلون لي أهل المدينة المنعَّمين في نظر قروي ساذج مطحون يزور القاهرة لأول مرة في حياته .. يااااه .. كانت العباسية والمناطق التي مررتُ بها في قمة الجمال ، لقد ذكَّرتني الشمس التي تضيء كلَّ شيء بحلم قديم جداً وأنا طفل كنت أحلم بهذه الشمس التي تجعل الأشياء واضحة جليَّة وقد انعكست أشعة الشمس على كلِّ الأشياء .

نزلت رمسيس وركبت مترو الأنفاق ، ووصلت إلى البيت ، احتضنتني أمي حضناً طويلاً وحاراً وبكت كالعادة ، وقالت : إنها كانت تعدُّ الأيام التي قضيتها منذ آخر أجازة ، وأنها كانت

مشغولة جدا عليَّ ، وخافت أن يكون قد حدث لي مكروه ، وقلت لها إني لم أشتق لأحد بقدر اشتياقي لها هي وأختي الصغيرة ، التي عندما رأتني طارت من فوق الأرض وارتمت في حضني ، وبكت وأبكتني ... " .

أحس أني مقصِّر في حق أمي العزيزة فمنذ أكثر من شهر لم أزرها ، وآخر مرة كلمتها تليفونياً كان منذ ثلاثة أيام ، لا أدري لماذا ضعفت علاقتي بأمي وأختي الصغيرة التي لم تعد صغيرة الآن بل أصبحت في الثانوية العامة ، كنت دائم الاشتياق إليهما ، ولم أكن أطيق البعاد عنهما ، ولا أدري لماذا بعد زواجي تغيَّرت الحال، وللأمانة فإن زوجتي كثيراً ما تطالبني بالسؤال عن أهلي وتعرض عليَّ زيارتهم ، لكن يبدو أن الإنسان قبل الزواج لم يكن عنده إلا بيت واحد يشتاق إليه ويحن إليه فهو يمثل له الأهل والسكن ، وبعد الزواج يصبح عنده بيت آخر ، وزوجة ، وأولاد ، وبعد أن كان البيت الأول مسئولاً عنه ويمثل له أجمل الذكريات ، صار البيت الثاني مسئولاً منه ويمثل له ... وبدلاً من الحديث عن البيت الثاني الذي أعيش فيه استأذنك عزيزي القارئ في الاتصال ببيتي الأول فقد اشتقت لسماع صوت أمي .

***

٩

أعتذر لك عزيزي القارئ عن الغياب عنك لمدة يومين فبعد أن اتصلت بأمي أول أمس اكتشفت أنها مريضة ، وضغط الدم تجاوز المائتين ، ولم تشأ أن تتصل بي حتى لا تزعجني ، وأسرعت بالذهاب إليها ، وعرضها على الطبيب ، ومتابعتها حتى تحسنت حالتها والحمد لله .

وبعد أن اطمأننت عليها أعود لمواصلة الحديث عن مهمة الـ ٤٨ ساعة .

" ٨/ ٥/ ... بعد أن أكلت أكلة دسمة ، ونمت نحو ساعة ونصف ثم ارتديت ملابسي الملكية ونزلت، بحثت عن محل يبيع شنابر ماكينات في شارع الجمهورية ، لم أجد سألت دلُّوني على مكان آخر ، ولم أجد .. سألت دلُّوني إلى مكان ثالث ذهبت .. غير موجود شنابر سألتهم دلُّوني مكان رابع ... وهكذا وجدت نفسي أنتقل من محل إلى آخر ومن منطقة إلى أخرى إلى أن وصلت إلى محل في شارع زكي بالتوفيقية وبدأ صدري يضيق .

لم أستطع أن أقنع نفسي بأني أتفسح في وسط البلد .

وبينما أنا في محل أسأل وخارج فإذا بشريف واقف أمام المحل يبتسم صافحته ، وأنا لم أفق من الدهشة ووقع المفاجأة وأخذني

إلى داخل المقهى ووجدت حساماً هناك يا لها من مفاجأة خير من ألف ميعاد جلسنا تكلَّمنا وحكيت لهم عن المأمورية التي أتيت من أجلها وطمأنني حسام على عمل الشنابر بعدما كدت أن أيأس .

وبعد نصف ساعة جاء أسامة لتكمل الجلسة .. تكلَّمنا بكلِّ سعادة ، وفرحة ، وعرفنا من أسامة إنه جاء من الإسكندرية خصيصاً من أجل هذا اللقاء .

لعب أسامة مع شريف عشرة طاولة وشربت زجاجة كولا مثلجة، ثم خرجنا نتمشَّى في وسط البلد ، وبدأت مهازل المراهقين الكبار فما يكاد يرى أحدهم فتاة جميلة حتى يصيح ويهلِّل ويلفت نظر الآخرين إليها ويتبادلون التعليقات المخجلة والغزل الصريح ، وبصوت عالٍ جداً ، وأنا لا أكاد أصدِّق ما أرى وما أسمع ، وما كان مني إلا انطلقت فيهم واعظاً تارةً ، وساخطاً تارة أخرى ، ولائماً تارة ثالثة ، وساخراً تارة رابعة، دون جدوى .. لم يكفوا عن العبث ، ولم أكف عن الكلام معهم ، وهدَّدتهم إن لم يكفُّوا عما يفعلون فسوف أشكوهم لوجيه فصرخوا في نفس واحد : لا .. وجيه لا..

ذهبنا إلى شارع الشواربي ، وطفنا تقريباً أغلب شوارع وسط البلد، كانت مناظر الفتيات والسيدات مثيرة بل مشينة فالجو حار

جداً مع أنه من المفترض أننا في فصل الربيع ، والصيف لم يبدأ بعد، اقترحت على الزملاء بل ألححت عليهم أن نترك وسط البلد ونذهب إلى الكورنيش على أمل أن تكون المناظر الطبيعية أرحم من المناظر النسائية ، وبعد إلحاح استطعت إقناعهم أن الجو ألطف على الكورنيش حيث الماء والخضرة .

وصلنا إلى كبري ٦ أكتوبر مروراً بالتحرير ، وحكيت لهم عن أمجادي في كرة القدم أسفل كبري ٦ أكتوبر وعرضت عليهم أن نصعد الكبرى فرفض أسامة بشدة لأنه لا يريد أن يتذكَّر أيام خطوبته الجميلة على هذا الكبرى وليس معه صفاء خطيبته .

سرنا على شاطئ النيل في اتجاه قصر النيل ، ولم يكن الكورنيش أحسن حالاً من وسط البلد بل أكثر فساداً ؛ فقد امتلأ بطلاب الهوى والعشاق على طول الكورنيش وفي أوضاع مختلفة ومخلِّة ، وصلنا إلى كبري قصر النيل ، وعبرناه إلى الجزيرة ومازال التهريج مستمراً ، كنت أسبقهم بعدة خطوات حتى لا يشبهوني ، وحتى لا يراني أحد يعرفني ، وقد وقع المحظور فقد رآني المهندس حمدي آخر كبري قصر النيل ، ولم يكلِّمني فقد كان آتياً من خلفي ، وانطلق دون أن ينظر وراءه ، جلسنا بجوار تمثال سعد زغلول ريثما نلتقط أنفاسنا ونستريح ، ونفكِّر إلى أين نذهب .

مرَّت فتاة مثيرة ترَكَني الزملاء المراهقون الكبار وانطلقوا وراءها، وأنا قابع في مكاني لا أصدِّق ما يجري من الرفاق ، وخاصة أسامة .. دخلنا الأوبرا وسرنا في حدائقها الغناء ورأينا " ماكتتات " لبعض المنازل ، كانت الأوبرا غاية في النظافة والشاعرية وخرجنا من بابها الخلفي ، كان العساكر يرتدون زياً أبيض جميلاً وهو يبدِّلون الوَرْدِيَّة ، وقال لهم أسامة : خدمة سعيدة كما يقول بعض الجنود أحياناً لمن يستلم منهم الخدمة .

خرجنا وسرنا على الكورنيش ، واكتشفت أن القبة السماوية توجد خلف بالأوبرا .. سرنا على الكورنيش خلف النادي الأهلي متجهين إلى كبري ٦ أكتوبر ، وكان الكورنيش غاية في الهدوء كعادته في مثل ذلك الوقت بُعَيْد المغرب بقليل وكان المنظر جميلاً الخضرة والماء والذي كان يفسده منظر أولئك المتسكعين على الكورنيش وقد راح كل واحد منهم يعابث من معه بطريقة مقززة بالنسبة لي مثيرة بالنسبة للرفاق وسرنا حتى وصلنا إلى كبري ٦ أكتوبر صعدناه وسرنا في اتجاه ميدان عبد المنعم رياض، وما زال التهريج مستمراً ، ومازال الوعظ مستمراً حتى قال لي : شريف : أتريد أن تقنعنا أن موقفك هو الصحيح ، وكل الناس على خطأ؟!! لا بد أن تمتِّع شبابك أنت مازلت شاباً .

قلت له إن كثرة المخطئين ليست مُسَوِّغاً للخطأ ، ولم يفهم حسام كلمة مُسَوِّغاً وشرحتها له كالعادة .

ونزلنا من الكبري وذهبنا إلى محطة جمال عبد الناصر ، وكان الزملاء يريدون أن يذهبوا إلى السينما ، واعتذرت بشدة ، وركبت المترو وعدت إلى البيت ، بعدما اتَّفقت مع حسام على لقائه غداً لعمل طقم الشنبر ... " .

العجيب عزيزي القارئ رغم اختلاف طباعي عن بعض زملاء دفعة مايو إلا أني افتقدتهم كثيراً عندما أنهوا خدمتهم وخرجوا من الجيش لذا سأحاول غداً إن شاء الله البحث عن آخر أيام جمعتني بهم ووداعي لهم ، وتأثير غيابهم عليَّ بعد ذلك .

***

١٠

بعد أن استيقظت من النوم وذاكرت لشريف ونفَّذت طلبات زوجتي هأنذا أعود إليك عزيزي القاري .

" ١٨/ ٥/ ... الساعة الخامسة مساء فرشنا البطاطين في ظهر الفصيلة الأولى ، وجاء نور ، وحسام ، وأسامة وقرأت عليهم قصة " سُنَّة الحياة " إحدى القصص التي كتبتها في الباجوري ، وأعجب بها أسامة جداً وطلب مني أن أكتبها له رغم أنها ليست قصته ، وكذالك أعجب بها نور وحسام وقرأت عليهم قصة " أريد أن أستريح " القصة التي كتبتها في أحمد زهران ، وأعجب بها الكل ورفض أسامة أن نتناقش حولها ، وغنينا أجمل ما نحفظ ، غنينا لعبد الحليم " فاتت جنبنا ، ونبتدي منين الحكاية ، وموعود ، والهوا هوايا و ... وسعدت سعادة لم أسعدها في الجيش من قبل وكانت سهرة جميلة حقاً ، والجو لطيف ، والغروب رومانسي ، والأغاني عاطفية وكنت أتمنَّى ألا ينتهي اللقاء ولكن الحلو ... "

أفقت على صراخ زوجتي جريت ...

– أنت تريد أن تجنني .. الشاي الذي وضعته على النار منذ ساعة حتى تفحَّم البراد ، ولولا أني قمت من النوم لأشرب كان المطبخ اشتعل .. أين كنت ؟ وماذا كنت تفعل ؟ ....

وبالباقي أنت تعرفه عزيزي القارئ والعارف لا يعرَّف ، لكني أنا أعذرها فقد كان شكل البرَّاد فحمة ، والدخان يملأ الجو ، لكن ماذا أفعل كنت مندمجاً في الكتابة ونسيت الشاي .

***

١١

أعتذر لك عزيزي القارئ أني أنهيت الحديث بالأمس سريعاً ولم أتمكَّن من أن أقصَّ عليك ذكرياتي مع دفعة مايو .

" قبل نزولي أجازة كانت دفعة مايو سوف تنهي خدمتها ولن أراها ثانية ، عانقت وقبَّلت بحرارة : أسامة ، ونور ، وزين جلال وغيرهم من أصدقائي الأعزاء ، كما عانقت وقبَّلت علاء أحمد ، ومحمد عبد العال رغم أنهما لم يكونا من أصدقائي بل إنهما كانا من الأشخاص الذين لا أحب الجلوس معهم ، لكنها العِشْرة وهذا هو الوداع الأخير قبل إنهاء خدمتهما ، فلن أراهما بعد ذلك ، وذهبت إلى الإشارة وودَّعت راغباً بحرارة زائدة لأنه إنسان يعزُّ عليَّ فراقه فعلاً ، وكان قد كتب لي عنوانه بالتفصيل بالأمس ، وبإذن الله سوف أحاول أن أراسله ؛ فهو يعيش في المنصورة ليس كالأصدقاء الذين ....

- بابا .. بابا .. بابا .

- ماذا تريد ؟ صدعتني ؟

- ماما تقول لك : ذاكر لي لغة عربية لأنها مشغولة ..

- الله يخرب بيت ... يا بني أنا ما صدقت أن أندمج .. المهم أين الكتاب ؟

معذرة عزيزي القارئ نواصل كتابة المذكرات بعد انقطاع دام أكثر من ساعة في الشجار أقصد التدريس لابني .

" ٣١/ ٥ بعد عودتي من أجازتي ، وبالطبع لم أجد دفعة مايو وبدأت أتضايق لعدم وجود الأصدقاء الأعزاء نور ، وأسامة ، وراغب ، مصطفى كمال ... وبدأ بعض الزملاء القدامى يقترب مني أكثر منهم سعيد الشيخة ، سعيد هذا هو مَنْ أَحْسَنَ استقبالي أول يوم لي في السرية وحمل عني المِخْلة ، وساعدني في عمل سريري ، قد حدثني في الصباح بعد الانتهاء من العمل ونحن جالسان داخل مخزن الشئون حدثني حديثاً ودوداً صادقاً عن مشكلة تؤرِّقه ، وهي أنه عندما كان في الدبلوم كان يحب لعب كرة القدم مع أصدقائه في قريته في الشرقية ، ولاحظ أن فتاة جميلة تسكن في بيت بجوار الملعب يراها كثيراً عندما يذهب للعب ، وبدأ يعجب بها .

وفي يوم أصيب في رأسه أثناء اللعب ، وحمله صديق له إلى دار هذه الفتاة ليعملوا له إسعافات أولية ، فأحضرت له الفتاة حفنة بُن وكبست بها جرحه وخلعت المنديل الذي على رأسها وربطت به رأسه .. ذاد إعجاب سعيد بالفتاة ، وتعرَّف على جدِّها ؛ لأن أباها مسافر إلى العراق من ست سنوات ، وانقطعت أخباره تماماً ، وهذا

الجد هو الذي يقوم على شئون البيت هو والأم ، وهما يعرفان سعيداً لأنه من عائلة معروفة في البلد .

وذات مرة وبينما كان سعيد ذاهباً إلى الحقل يسوق البهائم ، رآها وهي ذاهبة بجرَّتها إلى " طرمبة المية " ؛ فاستوقفها وسألها : أنت تعرفين اسمي ؟ فقالت : أنت سعيد أبو الشيخة . تعلَّق سعيد بها ، وبدأ يتكلَّم معها متى أتيحت لهما الظروف ، وفي يوم وبينما هو جالس في بيته استأذنت عليه فاطمة وهذا هو اسمها في طلب " خرَّامة ورق " لأنها في حاجة إليها ، وطلب منها أن تجلس ، وطلب من أمه أن تصنع لهما الشاي ، وذهبت الأم وهي ممتعضة تمصمص شفتيها ، وبمجرد خروج أمه همس سعيد إلى فاطمة قائلاً : أنا من أول يوم رأيتك فيه وأنا معجب بك .. أنا أحبك يا فاطمة وأريد أن أتزوجك .. ما رأيك ؟ قالت له : أنا أحبك من قبل أن تعرفني .

ويعلِّق سعيد على هذا بأن " البنت جريئة جداً " واطمأن سعيد ، وحدَّث والدتها في خطبة ابنتها فاطمة فرحَّبت جداً ؛ لأن سعيداً بالنسبة لهم فرصة ؛ فهو من عائلة الشيخة المعروفة في البلد ، وأهل فاطمة ناس على قدر حالهم ، وأنهى سعيد الدبلوم ، ودخل الجيش ، وأصبحت فاطمة في الدبلوم ، وفي كل أجازة يراها

ويكلمها ، وفي الإجازة الأخيرة وبينما كان جالساً أمام داره إذا بفتاتين تمرَّان أمام بيته وقالت إحداهما للأخرى : هل تعلمين أن فاطمة خطبت ؟ وجن جنون سعيد ، وذهب لجدها وأمها ، وأخبرهما أنه سبق أن تقدَّم لفاطمة ووعداه بها فماذا جرى ؟ وعرف من جدها أن رجلاً تقدَّم لخطبة فاطمة فقط ، ولم يتم الموافقة عليه بعد ، وأنه إذا أراد أن يخطب فاطمة فعليه أن يحضر والده ووالدته .

وذهب سعيد إلى والده ، وأخبره بحبه لفاطمة ورغبته في خطبتها ، وسخر أبوه من كلامه ، وقال له : أنت ما زلت صغيراً، ولا تعرف مصلحتك ، وسعيد هو بِكْر أبيه والذراع اليمين له ، ثم قال له أبوه : أنا خطبت لك بنت عمك ، وهي بنت صغيرة وجميلة، وأبوها عنده فدادين كثيرة ، وليس له أبناء غيرها وأخت أخرى صغيرة ، وفهم سعيد لماذا رفض أبوه فاطمة فتركه غاضباً ، وذهب إلى أمه واشتكى لها من أبيه فقالت له : أنا عندي لك بنت آخر حلاوة .. بنت خالك .. ما رأيك ؟

وجن جنون سعيد لأنه لا يريد إلا فاطمة ، ويريد أن يذهب والداه معه لخطبتها لأنه يحبها ، فلما رفض والداه طلبه وعرضا عليه الزواج من بنت عمه أو بنت خاله ثار ثورة عارمة ، وقرَّر أنه في الإجازة القادمة إن لم يخطب له أبوه فاطمة فسوف يترك

له البيت ويترك البلد كلها ليجبر أباه على قبول طلبه فسعيد بِكْر أبيه وهو الذي يزرع الأرض ويستأجر الأنفار ، وهو الذي يعرف كل شيء عن الأرض .

سألت سعيداً : ألم توسِّط رجلاً له كلمة مسموعة عند أبيك ؟

قال : ذهبت لعمي الذي لا يرفض أبي له طلباً ، ولما كلَّمته في هذا الموضوع ، وافق على رأي أبي لأنه يريد أن يزوجني ابنته، وانتهت الإجازة وعاد سعيد إلى السريَّة وهو مهموم وظلَّ يومين راقداً .

وكنا قد تركنا مخزن الشئون الذي كنا نعمل فيه وذهبنا إلى ف٣ وصنع لي سعيد شاياً ، وأثنى عليَّ ثناء جميلاً وطلب مني رأيي في الموضوع ، واقترحت عليه أن يتمسَّك بفاطمة حتى النهاية ، وأكَّدت له أن أباه سيرضخ لطلبه ويزوِّجه بمن يحب .

وطلب سعيد مني بعد ذلك أن أحلِّل شخصيته فقلت له : إن من عيوبه قلَّة ثقافته عامة والدينية خاصة ، وأن تهريجه الكثير يجعل رأيه بلا قيمة فالكل يأخذ كلامه على أنه تهريج وليس جداً ، ومن عيوبه أيضاً أنه يتزلَّف للصف ضُبَّاط مما يُهِين كرامته في نظر زملائه ، أما مميزاته فإنه خفيف الروح ، شهم في كثير من المواقف " .

بحثت عن بقية حكاية سعيد فوجدت " ٢٢/ ٦/ ... ذكر لي سعيد الشيخة بالأمس بعد الإفطار إنه عندما عاد إلى البيت في الإجازة الماضية ، وجد أباه قد قرأ له الفاتحة على فاطمة حبيبته، وسعد جداً بهذا الخبر ، وذهب إليها وظلَّ طول الليل يشرب " شيشة" مع جدها ، وانتهت المشكلة " .

وبحثت عن أي قصة أكون قد كتبتها عن حكاية سعيد فلم أجد، أستأذنك عزيزي القارئ في الذهاب لتناول العشاء ثم النوم فقد استأذنتني زوجتي العزيزة عدة مرات في إعداد العشاء وأنا كنت استمهلها ليتها تكون هكذا دائماً تُقَدِّر ...

– سامي .. سامي .

***

١٢

أعتذر لك عزيزي القارئ أني لم أتواصل معك منذ أكثر من ثلاثة أيام بسبب شعوري بآلام شديدة في الرقبة ، وذهبت إلى التأمين الصحي وبعد معاناة من التأمين الصحي أكبر من معاناتي من آلام رقبتي عملت رسم لفقرات رقبتي واكتشف الدكتور أن هناك إجهاداً في منطقة الرقبة وأسفل الرأس وأعلى الكتفين، نتيجة الجلوس لفترات طويلة بطريقة خاطئة عند الكتابة، أو عند استخدام الكمبيوتر ، ونصحني بعدم إجهاد نفسي في الكتابة أو استخدام الكمبيوتر ، ووعدته بذلك ، وأنا أنوي ألا آخذ بنصيحته فطبيعة عملي تجبرني على الكتابة الكثيرة ، أما الكمبيوتر فكتابتي عليه هي متعتي الوحيدة في زمن عزَّ فيه ما يُمْتِع .

" ٤/٦ جلست في ظهر في ٢ بمفردي أتحسَّر على أيام كنت أجلس مع أصدقائي الذين أنهوا الخدمة بحمد لله ، جاء عليّ عبد ربه أو علي صاروخ كما كان الزملاء يسمُّونه ، وبعد حديث قصير عن أحوال السرية حدَّثني عن المشكلة التي تؤرِّقه ، فأبوه مريض لا يغادر البيت ولا يستطيع الحركة ، وحكى لي عن إهمال المستشفيات الحكومية التي أخذ أباه لعلاجه فيها وعن خلوها من

العلاج ، وحدَّثني عن أرضهم التي لا تجد من يزرعها بعد مرض أبيه ودخوله الجيش ؛ فهو الابن الأكبر الذي كان يقوم بزراعة الأرض والإشراف عليها ، وحاولت إخراجه من حالة الحزن التي كانت تسيطر عليه فقرأت عليه بعض قصصي وسألته عن رأيه فيها فقال : إن فيها بعض الغموض بعكس القصص التي قرأها للكتَّاب الآخرين ، ولكنها على العموم جميلة جداً .

٦/٥ / ... جمعت السرية ، وركبنا العربة البيجاسو وذهبنا إلى سرية الهاون ، وبعد حوالي نصف ساعة وصلنا إلى ميدان الرماية، ورميت حوالي ٣٠ طلقة أصبت في العشر طلقات الأولى منها ٣ أهداف ، وفي الثانية مثلها ، وفي الثالثة هدف واحد وتضايقت جداً فقد كنت أتوقَّع أن أصيب أهدافاً أكثر من هذا بكثير ، كان وجيه أفضل الرماة تفوّق حتى على صف الضباط ، وعدت وقد حطَّم الصداع رأسي من صوت الرصاص ، ولا أكاد أرى من الغبار الذي ملأ عيني ترحَّمت على كل أبطال الوطن وشهدائه الذين دافعوا عن هذه الأرض العزيزة وعانوا أقسى أنواع التعب والألم والمعاناة " .

بحثت عن قصص حبٍّ لعلِّي أنسى آلام الرقبة والآلام الأخرى وجدت قصة أحد أفراد الدفعة الجديدة التي جاءت بعد خروج دفعة مايو :

" ١٨/ ٦/ ... كنت أجلس في ف١ بعد الانصراف للراحة وقبل طابور الخدمة وبينما كنت أكتب بعض مذكراتي إذ جاء طه أبو سريع وجلس بجواري فطويت مذكراتي ، وبعد حديث طويل تعارفنا فيه وحدثته فيه عن الحياة في أم خشيب ونظام الخدمات والإجازات وصفات الضباط والصف الضباط وبعد أن أنس لي قال : أنا أريد منك أن تكتب لي كلمة في عيد ميلاد حبيبتي .

– لماذا لا تكتب أنت لها هذه الكلمة ؟

– أنا سمعت أنك أديب وقصاص .. وأنا أريدها كلمة حلوة . طلبت منه معلومات أكثر؛ حتى تكون الكلمة مكتوبة في حبيبته خاصة وليست كلمة عامة .

فقال لي أنه يحبها من حوالي سنة أو يزيد ، وأنها قريبة له من بعيد ، وهي في الثانوية العامة ، ومِن أسرة أغنى من أسرته ، وأن الفتاة تحبه وتصارحا بذلك ، ولا يعلم بهذه العلاقة إلا خالها الذي في مثل سنه ، وزوجة عمها ، وأخبرني أنه يخشى إنها إذا نجحت في الثانوية العامة ودخلت الجامعة تحسُّ إنه أقلُّ من مستواها العلمي وتحب أحد زملائها ، كذلك يخشى من فارق المستوى الاجتماعي ، سألته عن إمكانياته فقال : دبلوم تجارة حديث .. وليس معي شيء .. وليس عندي عمل ... " .

الحمد لله عزيزي القارئ لقد أدركت الشاي قبل أن يحترق فقد وضعته قبل البدء في الكتابة ونسيته كالعادة ، ولكن الحمد لله لم يحترق براد الشاي لأني كنت قد ملأته بالماء تحسباً من نسيانه على النار وما حسبته وجدته المهم ربنا ستر .. نعود الآن لمواصلة الكتابة .

" وأخبرني أن معظم أصدقائه نصحوه أن ينساها ، وطلب مشورتي فقلت له أمهلني بعض الوقت ، وطلب مني كلمة يكتبها على هدية يرسلها لها في عيد ميلادها الذي لن يتاح له حضوره ، وقال إنه لا يجد الكلام الذي يعبِّر لها به عن حبه لذا طلب مني أن أكتب له كلمة ، قلت له : الحب لا يحتاج إلى كلام منظوم ، إنما يحتاج لصدق .. فأي كلمة منك ستكون أفضل من كلام إنسان صنعته الكلام ، ومع ذلك ألحَّ عليَّ أن أكتب له هذه الكلمة، ووافقت .

انصرف طه ورحت أفكِّر في كلمة أكتبها له ، ولم أستطع أن أكتب في جو لا يسمح بالرومانسية فقد كانت السرية تمر بحالة شدٍّ بسبب مرور النقيب على الخدمات أمس ووجد شريفاً نائماً .

حاولت أن أكتب أي شيء فقد وعدت طه فكتبت :

" أماني أن يحقِّق الله لك أمانيك ، وسعادتي أن تكون السعادة بين يديك " .

ثم كتبت " كنت أعلم أن الزهور لا تتفتح في الصيف حتى علمت أنك فيه تفتحتي " .

وكلمة أخرى : " للناس عيد ميلاد واحد ولي عيدان : عيد فيه ولدتُ ، وعيد فيه ولدتْ من جعلتْ لحياتي معنى ؛ فتهانيَّ لحياتي في عيدها ، ورجائي أن يجمع الله العيدين في عيد واحد " .

وكتب أيضاً : " ليس كل ما يتمنى المرء يدركه ، ولكني لا أملك إلا أن أتمنى " .

بحثت عن طه بعد أن كتبت هذه الكلمات فوجدته يقرأ في بعض الأوراق .. عرضت عليه الكلمات التي كتبتها ؛ ليختار منها ما يعبِّر عنه فاختار " للناس عيد ميلاد واحد ... " وقرأ عليَّ رسالة رومانسية مضمونها أنه يتمنَّى أن يعيش مع حبيبته ليلى طول الحياة ، وأنه يحبها جداً . ثم أخذ يحدثني عنها فقال : كنت أعرف غيرها قبل أن أعرفها ، ومشيت مع كثير من البنات ، وأخذت منهن ما أريد ، ولكن مع ليلى لا أستطيع أن أتكلَّم ولا أعبِّر عن إحساسي ، وأنا الذي كنت لا أكف عن الكلام مع البنات ، وكن يتأثرن بكلامي ، وحكي لي أنه كان ينتظر ليلى بعد خروجها من المدرسة ويسيران معاً ، وأحياناً يجلسان في حديقة أو

كازينو من الساعة الواحدة حتى الثانية والنصف ، وذكر لي أنه في إحدى المرات أمسك يدها ، وتركت له يدها لأول مرة ، وشدَّ عليها ، وقال لها: أتمنَّى أن نتزوج ونعيش معاً طول العمر .

فقالت له ، وقد شدَّت على يده : وأنا أيضاً أتمنَّى أن أعيش بقية حياتي معك .

– وبعد أن تركتُها كدتُ أطير من الفرحة ، وأحسست أني أصبحت عملاقاً ، وتصاغرت في عيني كلَّ الأشياء ، وكلما رأيت فتاة جميلة كنت أنظر لها بازدراء .

وحدثني طه عن حلم رآه ، وأثَّر فيه جداً :

– رأيت نفسي في حجرة أنا وليلى مراد ،وهذا اسم حبيبتي الثنائي، وكانت تلبس فستان الزفاف ، فضممتها إلى صدري وحدثتها عن حبِّي ، وغنَّت لي أغنية جميلة جداً كلمات ولحناً وصوتاً ، استيقظت من النوم وأنا في قمة الفرح ، وعندما حاولت أن تذكَّر الأغنية أو اللحن لم أستطع ، وذهبت للقائها وقصصت عليها الحلم ، وطلبت منها أن تغنِّي لي فخجلت.

قلت له : وماذا فعلت بعد ذلك ؟

– كلَّمتُ والدي .

– وماذا قال لك ؟

قال : الخطوبة والزواج يحتاجان تكاليف باهظة ، وأنت ليس عندك قدرة مالية .

– ولماذا لم تطلب من أبيك أن يساعدك ، ما دام أنه موافق عليها كما يبدو من كلامك ؟

– لأن كل ما معه سيشتري به قطعة أرض ، كما قال لي : إن عائلتها كبيرة ، ومثل هذه الزيجات تتطلب مبالغ كبيرة .

وحكى لي طه أنه فاتح ليلى أنه يخشى أن تنساه عندما تدخل الجامعة ، فقالت له : إنها لن تدخل الجامعة إن كان هذا سيبعدها عنه ، ولكنه أصرَّ على أن تدخلها ، وحدَّثني عن أن أحد أصدقائه كانت له حبيبة في الثانوية العامة ، وهو معه دبلوم ، ونجحت وحصلت على مجموع يدخلها كلية التجارة أو الحقوق ولكنها دخلت معهد فني تجاري من أجله ، وحدثني عن صديق آخر خطب فتاة في الثانوية ، وعندما دخلت الجامعة تعرَّفت على شاب آخر وأحبته ، واشتهر أمرهما فهجرها وفسخ خطوبته منها .

وأخبرني طه أن ليلى مؤدبة جداً ، وأنها من عائلة محافظة جداً، وأنها لا تنزل من بيتها إلا لتذهب إلى المدرسة فقط .

وسألني طه عن رأيي فقلت له تفسيري المعتاد لمثل حالته ، وقلت له يجب ألا يعقد الأمل على زواجه بها ، وأن يقلل من مقابلته لها ويترك الأمور للزمن فإن هي خطبت لغيره فيكون مهيأ لذلك ، وإن لم تخطب ، يمكن أن يخطبها عندما تتحسن ظروفه .

وقال لي : إنه كان يكره أم كلثوم ولكنه في الفترة الأخيرة أصبح يعشقها ، هي وفريد الأطرش ، وأحب الأغاني إليه أغنية " الحب كله " ولقد أعطى ليلى شريط هذه الأغنية ، وأعجبت به جداً كذلك يحب أغنية الأطلال ، وأنت الحب وغيرهما .

في اليوم التالي أخبرت طه أني يمكن أن أكتب قصته مع ليلى ففرح جداً جداً ، وصافحني بحرارة ، وطلبت منه أن يمهلني بعض الوقت حتى أتمكَّن من ذلك .

بعد ذلك بيومين كنت في خدمة ثانية حملة ، وكان الجو جميلاً وفكَّرت في العناصر الرئيسية لقصة طه ، وعندما قابلته أخبرته بهذا ففرح فرحاً كبيراً ، وطلب مني أن أقول له شيئا عن القصة ولكني رفضت حتى لا أحرق القصة ، ووعدته أنه في أقرب فرصة سوف أنتهي من كتابتها وأهديه نسخة منها ففرح جداً، وقال ستكون ذكرى جميلة جداً أحتفظ بها .

وحكى لي طه على شيء كان قد نسيه وهو أن صديقاً له اسمه مجدي كان يحب ليلى قبله وكان يقابلها ويعطيها خطابات ، وأن عدد خطاباته لها وصل إلى ٦ خطابات وفي يوم أعطاها جواباً وطلب منها إذا كانت موافقة عليه تمر عليه عند بوتيك علاء الدين ، وبالفعل مرَّت عليه بل دخلت البوتيك أيضاً ، ومعنى ذلك أنها معجبة به ، ثم بدأت قصة طه معها ، وقد قالت له ليلى أن مجدي هذا كان ينتظرها أمام بيتها ، وأنه كان يحاول أن يعطيها خطابات ، ولكنها رفضت أن تأخذ منه أي خطاب .

قابل طه صديقه مجدي وطلب منه أن يحكي له كل شيء عن علاقته بليلى فقال له إنه كان معجباً بها ، وأنه أعطاها ٦ خطابات . قال له طه : لو كنت أعرف ذلك ما كلمتُها ، والآن أنا على استعداد أن أضع الاختيار في يدها . ورفض مجدي هذا الاقتراح ، وقال له إن هذا الموضوع بالنسبة له قد انتهى ، ولكن طه تضايق من هذا الموقف ؛ فمجدي صديقه جداً ، وكلما رآه يكرهه هو وليلى ويكره نفسه ، ويتمنَّى لو مات أو انتحر ، وأصبح يتمنَّى الموت لأنه يحس إنه ظلم صديقه وخطف منه حبيبته ، أما ليلى فبدأ يشك في صدقها فقد كانت تأخذ من مجدي الخطابات ، وتتحدث معه ، ومع ذلك أنكرت كل ذلك .

وأكَّدت لطه أني سأكتب له قصة تعبر عن حكايته ، وفرح بهذا وتمنَّى ذلك وألحَّ في ذلك ، وأنوي أن أكتب قصة طه التي في نظري فيها صراع أكبر من ...

– سامي .. سامي

***

١٣

والله أنا الذي أصبحت حياتي كلها صراعات خاصة بعدما ابتلاني الله بموضوع الكتابة والتأليف ، وكنت أظن الكاتب يعيش مُرفَّهاً كما يظهر في الأفلام وخاصة فلم " اذكريني " حيث كان محمود ياسين يقوم بدور كاتب روايات ومتزوج وكان عندما يتواجد في أي مكان تسرع إليه الحسناوات يصافحنه ويوقع لهن على " أتوجرافاتهن " وأحب نجلاء فتحي على شاطئ المنتزه ، وكان متزوجاً ، وهو إعادة لفيلم " بين الأطلال " الذي قام ببطولته عماد حمدي وفاتن حمامة ، المأخوذ من رواية يوسف السباعي ، لكن أنا أحب أكثر فيلم " اذكريني " وأحلم أن أكون في يوم من الأيام مثل بطله في الشهرة والغنى وفي إعجاب الحسناوات أقصد القرَّاء برواياتي ، وأقضي معظم الصيف في المنتزه والمعمورة أكتب الروايات على الشاطئ ، وفي الشتاء أكتب في حديقة نادي المعادي وحولي ...

– بابا .. بابا .. بابا .. ماما تقول لك : تعالى غيَّر أنبوبة البوتاجاز .. بسرعة .. بسرعة الأكل على النار .

غيَّرت الأنبوبة بسرعة ليس لأن الأكل على النار إنما لكي أواصل الحالة الجميلة التي كنت فيها ، وأنا أحلم بحياة الكاتب وهو يكتب على شاطئ ...

– سامي .. سامي .. أدركني .. أدركني .. فيه رائحة غاز .

سارعت بإغلاق الأنبوبة بسرعة ، وفتحت شباك المطبخ ، وأعدت تركيب الأنبوبة بإحكام هذه المرة وأجريت اختبار التأكُّد من عدم تسريبها للغاز بأن أشعلت عود كبريت ومررت به على الأنبوبة والحمد لله لم يحدث اشتعال في منظم الأنبوبة إنما حدث اشتعال في فم زوجتي الذي ليس له مُنظِّم : " أنت تريد أنا تحرقنا .. أنت لا يهمك إلا الكتابة والكمبيوتر .. الله يلعن الروايات وكُتَّاب الروايات .. ماذا أخذنا من الروايات وسنين الروايات ؟! .. أنا سأدبر لك الخمسمائة جنيه ثمن الرواية الأولى ، ولا أريدك أن تجلس على الكمبيوتر مرة ثانية .. كل شيء أطلبه منك تعمله بسرعة .. بسرعة وتجري على الكمبيوتر .. هذه ليست عيشة .. تريد أن تحرقنا .. هذه ليست أول مرة .. كم مرة حرقت فيها برَّاد الشاي !! ونسيت اللبن على النار !! ولم تفصل المكواة بعد الكوي!! كم مرة ذهبت معنا في واجب عائلي !! أو أخذتنا إلى فسحة !! أنت لم تعد تجلس معي ولا مع أولادك .. وجودك في البيت أصبح كعدمه .. ووو ... " وسردت لي زوجتي قائمة اتهامات ، وللأسف لم أستطع أنا أدافع عن نفسي رغم أني خريج حقوق وأعمل مُحَقِّقاً قانونياً .

وفي النهاية صدر حكم الإدانة ممنوع الجلوس على الكمبيوتر إلا بعد الانتهاء من أداء كل الواجبات المنزلية والأسرية والعائلية والمذاكرة اليومية لشريف ، وعدم ترك شيء على النار والجلوس على الكمبيوتر .. عدم زيادة ساعات الجلوس على الكمبيوتر عن ساعة ونصف يوماً بعد يوم كما طلب دكتور العظام ....

***

١٤

هأنذا أعود للتواصل معك عزيزي القارئ بعد عدة أيام من المفاوضات والمشاجرات مع زوجتي كل هذا بسبب إدماني الكتابة والكمبيوتر ، وعدم قدرتي على الاستجابة للعلاج منهما ، أنا أطالب بإدراج المؤلفين – الحقيقيين – في قوائم المدمنين الذين يجب على الحكومة أن تجد لهم حلاً إما أن تعالجهم بالمجان مثل مدمني المخدرات أو تُعَلِّم أُسَرَهُم كيف يتعاملون معهم حتى لا نقضي على هذه الفئة المبدعة ، وتصبح بلادنا خالية من المبدعين.

أنا أعلم عزيزي القارئ أنك في شوق لمعرفة القصة التي كتبتها في طه أبو سريع ، والفرق بينها وبين حقيقة ما حكى لي ، وأنا سأقص عليك القصة وأتحداك قبل أن تقرأها أن تجد لها حلاً كما تحدَّيت كلَّ من قرأتُها عليهم .

الميعاد القادم

جلس حمدي في نفس المكان الذي تعوَّد أن يجلس فيه .. في هذا المكان يجد نفسه .. في هذا المكان يحسُّ بالراحة .. ينسى همومه .. يفكِّر بصوت مسموع .. على هذا الكرسي كم حلم وهو

مستيقظ ! .. كم تغنَّى ! .. كم .. كم .. لا يتصوَّر أن يكون هناك صديق مثل محسن .

- (صديق يعرف ما أريد قوله قبل أن أقوله) .

أحياناً يجلس معه ساعة .. ساعتين .. ليلة دون أن يتكلم .. دون أن يثقل عليه محسن بالكلام .. ثم ينصرف .

- (كان يفهمني .. يعرف طبيعتي الخاصة .. ربما لأن له طبيعة خاصة مثلي .. اليوم أتألم كما لم أتألم من قبل .. لا أستطيع التصريح ولا حتى التلميح) .

لم يتكَّلم منذ جلس .. كالعادة لم يثقل عليه محسن بالسؤال ..

- (ربما يفكِّر في قصة جديدة) .

- (ليته يسألني اليوم عن سكوتي .. اليوم فقط .. اليوم فقط ليته يكسر القاعدة) .

انتظر حمدي وانتظر ولا كلام .. بدأ يحسُّ بالبرد .. البرد ضيف جديد على هذا المكان .

أشار بأصبعه قام محسن ليصنع له الشاي الذي يحبه .

(معقول أن يكون هناك من يحبني مثل محسن ؟! .. من يفهمني مثله ؟! .. من يخلص لي مثله ؟! .. إشارتي له كلام وإيماءتي له رسائل .. كثيراً ما تحدثني نفسي بشيء فإذا به يقوم

فيلبيه .. يدير مؤشر المذياع أو يسكته .. يفتح الشباك أو يغلقه .. يأتي بطعام .. يرتدي ملابسه لنخرج .. تُراه اليوم يعرف ما أتيت من أجله .. تُراه اليوم يفهم سكوتي .. يدرك حيرتي وعذابي .. ليته يعرف) .

لم يكن يتصوَّر أنه سيواجه محسناً يوماً .. لأول مرة يخفي عنه أسراره .. لأول مرة يخاف كلامه .. كانا كثيراً ما يتناقشان ، ويتجادلان وفي وسط الجدال المحتدم يسكت أحدهما ويبتسم ويقول للآخر : " أنت على حق " .

– (تحدثنا عن كلِّ شيء .. كلِّ شيء .. بدءاً من العقائد ووصولاً للبغايا .. كنَّا نتفق ونختلف وتمرُّ الساعات سريعة .. يغلبنا النعاس ؛ فننام .. نستيقظ أول شيء نقوله : "متى سنلتقي؟" .. يا ترى هل سنختلف اليوم ؟ .. هل سيسكت أحدنا في وسط الجدال ويبتسم ؟ .. هل سنتواعد قبل أن نفترق ؟ .. أخشى المواجهة .. ولا أستطيع الهروب) .

فمع محسن لا يستطيع أن يخفي سرّاً .. أحياناً يكون هناك شيء يريد أن يخفيه عنه ، ويظلُّ طوال الوقت الذي يسبق معاده معه يذكِّر نفسه بهذا وعندما يلقاه أول شيء يحدثه فيه هو ما عقد العزم على إخفائه .

- الشاي يا سعادة الباشا .

وانحنى محسن وهو يقول هذا .. لم يبتسم حمدي كعادته في مثل هذه الدعابات ! بل أخذ فنجان الشاي ، وقام ليجلس على الأريكة المواجهة لمحسن .. شيء عجيب لم يحدث من قلب .

- أطفأْ النور .

قال محسن وهو في طريقه لإطفاء المصباح :

- لو كانت القصة التي تكتبها سخيفة سأحطم رأسك .

لم يعقب حمدي ، ولم يبتسم .

- (ليتني أستطيع أن أبكي كلمات.. ليتني أستطيع أن أنزف عبارات .. ليتني أستطيع أن أكتب قصة .. ما أحوجني الآن إلى قصة أختبئ وراءها) .

بدأ حمدي يرشف الشاي ببطء ، وبعد رشفة طويلة قال والقشعريرة تزلزل جسده :

- هل تعرف ليلى صلاح ؟

سؤال غريب .

- ليلى حبيبتك .. مالها ؟ .. هل رأيتها اليوم ؟

قال حمدي بصوت جاد :

- هل كنت تعرفها من قبل ؟

أجاب محسن بسرعة :

- نعم أعرفها .. سؤال غريب ..

قاطعه حمدي :

- أقصد هل عرفتها قبل أن أحدثك عنها ؟

علم محسن أن الموضوع مهم فسكت خوفاً من أن يتورَّط في إجابة سريعة .. فأكمل حمدي :

- هل عرفتها قبلي ؟

- نعم .

- ولماذا لم تخبرني ؟!

- لم أكن أعرف أن هذا الموضوع يهمك .

- ما هي الحكاية بالضبط ؟

- ماذا حدث ؟ .. من قال لك هذا الموضوع القديم الذي أنا نفسي نسيته ؟

- أرجوك يا محسن أن تحكي لي كلَّ شيء عن الموضوع .

- لم يكن هناك موضوع .. فقط كنت معجباً بها في فترة ما ، وانتهى الموضوع .

- هل كتبتَ لها خطابات ؟

- هل قالتْ لك هذا ؟

- أنا أسألك أنت .. هل كتبت لها خطابات ؟

- نعم .

- هل ردَّت عليك ؟

- لا .. أخذتها فقط ، واعتذرت ...

- وماذا ؟

- اعتذرت عن الرد وانتهى الموضوع عند هذا الحد .

- كم خطاباً ؟

- حوالي خمسة أو ستة .. لا أذكر .

- متى حدث هذا ؟

- تقريباً .. تقريباً ...

- أرجوك .. حدِّد بالضبط .

- لا أذكر على وجه التحديد .. إنما كان ذلك منذ أربع سنوات.. قبل أن تتوطَّد صلتي بك .

- كم مرة كلمتها ؟ .. أين ؟ .. متى ؟ .. ماذا قالت لك ؟

- يا حمدي هذا موضوع قديم .. نسيته .. كان قبل أن تعرفها أنت .

- لماذا تركتها ؟

- كان حب مراهقة وانتهى .. هذا ما حدث بالضبط .. سل ليلى إن شئت .

- (لم تقل لي ليلى أنها أخذت منه خطابات .. لم تقل لي إنها كانت تقابله .. تتحدَّث معه .. من أصدق ؟)

- صدقني هذا ما حدث .. أتريد أن أقسم لك على هذا ؟ .. هل قالت ليلى شيئاً غير هذا ؟ .. ماذا قالت لك ؟ .. تكلَّم يا حمدي دعك من هذا السكوت البليد .. ما الموضوع بالضبط .. إن كنت تمزح فدعك من هذا المزاح السخيف .. وإن كنت جاداً فقل لي الحكاية .

- (لماذا هو منفعل هكذا ؟ .. لو كان حقاً ما يقول لما انفعل بهذا الشكل .. لأول مرة لا يستطيع أن يفرِّق بين جدي وهزلي .. ماذا أقول له ؟ .. أقول له أني أمزح .. لن يصدقني .. أحكي له ما قالته ليلى .. سيكذبها .. وحتى لو صدقها فليس هذا دليلاً على صدقهما .. لو أخبرني هو أولاً بهذا الموضوع لما حدث شيء .. إنما تقوله لي ليلى لتثبت إخلاصها لي ، ويسكت محسن عنه ليثبت إخلاصه لي .. ماذا عليَّ أن أفعل لأثبت إخلاصي لهما ؟) .

- هل غضبت مني عندما عرفت ؟ .. المفروض أن ..

- المفروض ماذا ؟

- لا شيء .

- (المفروض أن أفرح لأنه تركها لي عندما عرف أني أحبها) .
- لو كنت أعلم حبك لها ما أحببتها .
- ماذا تقول يا حمدي ؟! .. أنا لا أحبها .. الموضوع انتهى .
- سأترك لها القرار .
- قرار ماذا ؟ .. هل جننت .. أنا ..أنا ...
- (لو أخبرني من البداية ما ترددت لحظه في تركها) .
- محسن .. سأسألك سؤالاً وأجبني عليه بصدق ، بالصدق الذي ...
- أنا أعرف ماذا تريد .. نعم أحبها .. لكنك قلت لي أنها تحبك.
- (" لكنك قلت لي أنها تحبك .. قلت لي " عرفت الآن لماذا كان يسألني كثيراً .. هل هي تحبك ؟ .. هل أنت متأكد من حبها لك ؟ .. هل صارحتك بهذا ؟ .. ربما هي معجبة بك فقط.. أو أنها ... عرفت الآن لماذا كان في البداية يسألني كثيراً عنها، ويهتم بسماع ما قالته بالضبط ويكرره ورائي .. عرفت الآن لماذا بدأ بعد ذلك يضيق بحديثي عنها .

ليالي الشتاء الدافئة .. نسمات الصيف اللطيفة يتصارعان .. الصديق الحكيم .. والملاك الرحيم يتصارعان ..

أبو زيد الهلالي فارس الحق .. وست الحسن ذات الجمال يتصارعان) .

- يا حمدي .. لا تشغل بالك .. هي تحبك ، وأنت تحبها .. والموضوع بالنسبة لي لا يعدُ أن يكون حبّاً فاشلاً .. ولست أول من فشل في حبه .. ولن أكون آخرهم .

- (كلامه يحيرني أكثر .. لو تمسَّك بها لاستطعت أن أتخذ قراراً .. لكن المنافس ليس قرصاناً بل فارساً نبيلاً) .

بدأت أشعة الشمس تقتحم الحجرة تصارع الظلام .. تبدِّد السكات .. لم ينم الصديقان .. ظلَّ كلٌّ واحد في موضعه لم يبرحه .. عندما وقعت عينا حمدي على محسن هبَّ واقفاً .. غادر البيت على الفور دون أن يتفقا على الميعاد القادم .

***

بالله عليك عزيزي القارئ ألست كاتباً بارعاً وأستحقُّ أن تنشر كتبي في دور النشر بدلاً من القصص السخيفة التي ينشرونها ، المهم رأيك أنت عزيز القارئ ، وهل توصَّلت لحل هذه المشكلة ؟ ألم اقل لك إنك لا تستطيع ...

- سامي .. سامي .. كفى جلوساً على الكمبيوتر وتعال شاهد معنا " مسرح مصر " مسرحية عن " المؤلِّف " هههههههههه .

***

١٥

هأنذا أعود إليك عزيزي القارئ لأكمل كتابة الشيء الوحيد الجميل في حياتي بعد معاناة العمل ومشاكل البيت وتفاهة ... المهم بعد أن كدت أموت كمداً وأنا أشاهد بالأمس " مسرح مصر " وسط ضحك زوجتي وابني الهستيري نمت وخشيت أن يحدث لي شيء ولكن الحمد لله لم يحدث لي شيء وإن بدأت أحس بألم في كتفي وذراعي الأيسر وشدٌّ خفيف في قدمي .

نعود إلى كتابة الذكريات علَّها تخفِّف عني ما أنا فيه .

" ٢٩/٦/ .. قرأت على طه قصة الميعاد القادم وأعجب بها جداً وطلب مني كتابتها له ليعرضها على حبيبته فتعبِّر لها عمَّا لم يستطع التعبير عنه ، وقال قال إن حمدي فيه ٧٥ / ٨٠ % من شخصيتي واعترض على أن القصة ليس لها حل فقلت له : أنت وليلى اللذان تكتبان الحلَّ ، لا .. أنا ..." .

سأحكي لك الآن عزيزي القارئ ليلة من أغرب الليالي التي مرَّت في حياتي ليلة عيد الأضحى المبارك وكيف أمضيتها .

"١/٧/ .. أخبرني الضابط مدحت أنه جاءته إشارة بالاصطفاف، وأنه لن يسمح لنا بنزول الإجازة إلا صباحاً ،

وحزنت حزنا شديداً حيث النزول في الصباح يحرمني من صلاة العيد ، والجلوس مع الأهل في صباح العيد ، لم أشأ أن كلِّم مدحت أمام الزملاء في هذا الموضوع حتى لا يصرَّ على رأيه .

أكلت التعيين وشربت شاياً وجاء ميعاد تسلُّم السلاح ، واستلمت السلاح وكنت خدمة أولى سلاح ووقفنا طابور الخدمة ، ثم وقفت خدمتي وكان الجو جميلاً وغنيت أغاني كثيرة مثل: قارئة الفنجان وموعود وفاتت جنبنا ، وكنت أغنِّي بصوت مرتفع ومع ذلك لا يسمعه أحد في هذا الفضاء الفسيح ، وأظلمت الدنيا وظهر القمر. عندما مرَّ الضابط مدحت على الخدمات كنت أغني أغنية " فاتت جنبنا " وبعد أن هنأني بالعيد وجدتها فرصة فكلَّمته في موضوع نزول الدفعة ليلاً بدلاً من الصباح كما هو المفروض ؛ فقال لي : قل لي أنت ما الحل المناسب ، والدفعة الآتية من الإجازة لم تأت بعد ماذا تفعل لو كنت مكاني ؟

فاقترحت عليه أن يعطينا التصاريح فور وصول الدفعة ، وكنت أحسب كما هي العادة أن الدفعة تأتي الساعة ١١- ١ ليلاً على الأكثر ووافق الضابط مدحت على هذا الاقتراح ، وعرف محمد عبد الرازق خدمة البوابة بهذا فرفض هذا الاقتراح ، المهم انتهت الخدمة الأولى الساعة ١٠ ليلاً ولم يأت سوى عبد الكريم ، ونزل

بدلاً منه زين لأن بلده بعيدة ، ولأنه ليس عنده خدمة ، أكلت مربى خوخ ، وشربت شاياً وجهَّزت حقيبتي ، ثم جلست أنا ومحمد عبد الرازق على بطانية في ظهر ف ٢ تحت ضوء القمر الساطع ننتظر بقلق ذلك القلق الذي تسرب إليَّ من محمد عبد الرازق وبينما نحن على ذلك إذ جاء أحمد منصور من السفر ، وأصرَّ حسام على النزول بدلاً منه لأنه لم ينزل إجازة منذ ٥٢ يوماً ، قلت له : أنا أولى بالنزول لأنني الوحيد الذي إذا فاتته صلاة العيد في جامع عمرو فكأنه لم يحضر العيد مع أهله ، ويكفي أني أمضيت عيد الفطر الماضي في الجيش ، ، هل أحرم أيضاً من عيد الأضحى كذلك ؟!

ومع ذلك سمحتُ بأن يسافر حسام ، وانتظرنا قادم آخر ، ولم يَكُفَّ محمد عبد الرازق عن لومي وتحميلي المسئولية عن هذا الوضع الذي نحن فيه .. ذهبت أنا ومحمد عبد الرازق إلى ملجأ الإشارة لنضيِّع بعض الوقت ، ولكن كلما مرَّ وقت ولو يسير يزداد قلقنا ، وها هي الساعة قد دقَّت الواحدة بعد منتصف الليل ، طلب مني عبد الرازق أن أذهب إلى الضابط مدحت وأطلب منه تصاريح الإجازة لكني رفضت لأنني لم أتفق مع الضابط على هذا، ولا أريد أن أرجع في رأيي ، فذهب هو إليه وطلب منه

التصاريح ، لكن الضابط مدحت رفض ، وعاد محمد وهو في قمة غضبه وانعكس عليَّ ذلك بالتالي .

لم ندر ماذا نفعل ؟ الوقت يمر ببطء بل لا يمر بالفعل ، والانتظار قاس مؤلم ، لم نطق البقاء في السريَّة خرجنا إلى الطريق الإسفلتي وجلسنا على الرمال وسط الظلام المخيف والهدوء الخانق نترقَّب مجيء أيَّ سيارة ، ومرَّ الوقت متثاقلاً وتثاءبت عقارب الساعة بل غَطَّت في النوم ، وذاد الهمُّ ووصلنا إلى قمة اليأس ، وبينما نحن عائدان رأينا ضوء سيارة آتية من بعيد انتظرنا .. وانتظرنا .. وأخيراً جاءت لكنها لم تقف عند سريتنا، عدنا كاسفي البال ، لم يكن أمامنا إلا وجيه الذي وعده الضابط مدحت بأن يعطيه التصريح بعد انتهاء الخدمة الثانية التي تنتهي الساعة الثانية بعد منتصف الليل ، وأخيراً سلَّم وجيه خدمته ، وذهبنا نحن الثلاثة إلى مبيت الضابط مدحت ، وطرق وجيه بابه ، وفتح الضابط وحدثه وجيه عن التصاريح وقلوبنا ترجف بالخوف والقلق ، وسأل مدحت وجيهاً عن العائدين فقال له وجيه : إنهم سيأتون لا محالة ، ونزلت نجدة السماء على سرية حرس الحدود في أم خشيب في سيناء كما نزلت عدالة السماء على استاد باليرمو مع هدف مجدي عبد الغني في هولندا ، أخرج

الضابط مدحت التصاريح وأخذ يقرأ الأسماء ، وأعطى وجيهاً التصاريح الثلاثة ، ونحن لا نكاد نصدق ، لَبِسَ وجيه مَلَكِي بسرعة لأننا كنا نريد أن نلحق بالسيارة التي مرَّت من نحو رُبْع الساعة ، وهي عائدة ، وجرينا ووقفنا على الطريق ، والطريق مظلم لا هَمْسَ فيه، وأدار محمد عبد الرازق الراديو ، وكانت أغنية عبد الحليم "مدَّاح القمر" مقطع " قَدُّك المَيَّاس يا عمري أيقظ الإحساس في صدري " حاولت أن أتسلَّى ، وأستمتع بهذه الأغنية الجميلة التي أحبها ، لكني لم أستطع ؛ فالقلق قد سيطر عليَّ ، والدقائق تتسرَّب من يدي ، وأصبح من الصعب مرور سيارة أجرة؛ فالساعة الآن الثانية والربع ، وأخشى ألا أدرك صلاة العيد في جامع عمرو ، ولكن الحمد لله من بعيد ظهر نور سيارة ، انتظرنا .. وانتظرنا .. وأخيراً جاء ميكروباص ١٢ راكباً ذو فانوس أمامي واحد ، لم يكن فيه سوى أربعة ركاب فقط ، جلسنا أنا ومحمد عبد الرازق في الخلف وجلس وجيه أمامنا ، وأنا لا أكاد أصدق ، وانطلق الميكروباص ، وسار حوالي ٣٥ دقيقة ، ثم توقف ليركب حوالي خمسة ركاب ليكتمل العدد ، كان يجلس بجواري رجل يلبس ملابس مَلَكِيَّة له رائحة غريبة خانقة ، وسار الميكروباص ، وكنت راغباً في النوم بشكل مُلِحٍّ لدرجة إني كنت أنام رغماً عني ، وهذا

لم يحدث لي في حياتي قَطْ ، لم يحدث في حياتي أن نمت وأنا جالس حتى في بيتي فما بالك بنومي وأنا جالس في ميكروباص يسير بسرعة أكثر من ١٠٠ كيلو في الساعة ، وكنت لا أريد النوم ، في هذا اليوم العجيب وجدتني أنام ، وأنا جالس ، وكادت رقبتي تكسر لأنني عندما كنت أغفو – رغماً عني – أفاجأ برأسي تندفع للخلف بشدة فأستيقظ على ألم شديد جداً يُخيَّل إليَّ أن رقبتي فُصِلَت عن جسدي ، وأقرَّر ألا أنام حتى لا أموت ، والعجيب مع حرصي الشديد على عدم النوم إلا أنني أجد نفسي نائماً ، وأستيقظ على رقبتي وهي تكاد تقطع ، ما أشد عذابي في هذه الليلة التي رأيت فيها ما لم أره في عمري ! تكرَّر هذا الأمر عدة مرات ، وآلمتني رقبتي جداً جداً ، لكن ما باليد حيلة ، وأخيراً وصلنا السويس ، وبدأتْ الدنيا تضيء بنور الصباح ، كانت دكاكين الجزارة والبقالة والخردوات والعَجَل ما زالت مفتوحة ، وقد كَنَس كلُّ صاحب دكان ورشَّ ماءً كثيراً أمام دكانه ، وكان منظراً جميلاً جدا جداً ، ليتني أراه العيد القادم بعد أن أخرج من الجيش بإذن الله ؛ لأن منظر صباح العيد وقبل صلاة الفجر وبعدها منظر يفوق الوصف ونزلنا من الميكروباص ، وفور نزولنا أذَّن الفجر أسرعنا إلى موقف ميكروباصات مصر أنا ووجيه والحمد لله

وجدنا " بيجو " امتلأ بسرعة وانطلق حاولت النوم حيث كانت جلستي تسمح بذلك وبالفعل استطعت أن أخطف بعض الوقت ، ووصلنا إلى رمسيس ، ويا للمعجزة ، في ساعة وربع فقط .. وصلنا رمسيس الساعة ٥.٥٥ ركبنا مترو الأنفاق أنا ووجيه الذي نزل في محطة السيدة زينب .

عندما وصلت البيت كانت الساعة حوالي السادسة والنصف ، لم أجد غير والدتي ؛ فالكل ذهب إلى الصلاة .. قبَّلتني وهمَّت بالبكاء ولكني قلت لها : أنا مستعجل لأدرك صلاة العيد خلعت ملابسي بسرعة ، وتوضَّأتُ وارتديت الجلباب الأبيض و "شبشب " وانطلقت كالبرق إلى جامع عمرو ، وكانت الصلاة قد بدأت جريتُ .. جريتُ ولم أجد مكاناً .. جريتُ .. جريتُ أكثر ، وأخيراً وصلت إلى الحديقة الموجودة أمام المسجد ، وأدركت ركعة ، وبعد الصلاة استمعت إلى الخطبة التي لم يكن فيها جديداً ؛ فقد كانت عن معنى التضحية ، وعمومية اللفظ ، ثم تحدَّث الخطيب عن أعداء الإسلام الذين يحاربونا في لقمة العيش ، ويستذلونا بها ، بعد الصلاة قابلت شحاتة زميلي في الثانوي وجاري ، وعلمت منه أنه دخل سلاح الطيران ، وما زال في مركز التدريب ، وقابلت أحمد عبد الحميد صديقي منذ الإعدادية الذي فرح بي جداً جداً

وقال لي : كنت أفكِّر فيك بالأمس ؛ لأنه لم يرني من نحو شهرين وبين الحين والآخر يقول : أنا لا أكاد أصدق إني رأيتك اليوم ، وكان يبدو عليه الصدق وكأنه كان يحلم بحلم ليلاً فلما أصبح الصباح رآه أمامه ، سرنا أنا وأحمد وشحاتة وسلمت على المهندس حسن وكثير من الأصدقاء وطُفنا بعض الشوارع والحواري كما هي العادة ثم عدت إلى البيت لأجده مكتظاً على آخره بالأقارب ..." .

صراخ .. صراخ .. وبكاء .. وأشياء تتحطَّم .

***

١٦

لا تقلق عزيزي القارئ فما حدث الأمس ليس زلزالاً إنما أمور تحدث في كل البيوت عندما تبدأ المذاكرة مع الأطفال الصغار خاصة إذا كانت الأم مضغوطة بالعمل في الحكومة صباحاً وبالطبخ بعد الظهر والغسيل بعد العصر وتنظيم البيت والمذاكرة للأولاد وإعداد العَشاء ووو .

المهم أعان الله زوجتي وأعانني عليها .

بالمناسبة سألتني زميلة لي في العمل ممن أهديتهم نسخة من روايتي الأولى: هل كل الأحداث التي في الرواية حقيقية أما من وحي خيالي ؟

وأنا أعرف ماذا تقصد من وراء سؤالها ، فأحداث الرواية تشتمل على شخصيتين للبطل تكادان تكونان متناقضتين : شخصيته في مذكراته ، وشخصيته مع زوجته ، ولكي أقطع عليها فضولها وتدخُّلها فيما لا يعنيها قلت لها : كلُّ قصة فيها الواقعي والخيالي.

فسارعت قائلاً : وهل نزولك ستة أدوار لإحضار فردة الشراب التي سقطت من زوجتك وهي تنشر كان حقيقة أو خيالاً ؟

– ....

– وهل حقاً زوجتك تركت البيت بسبب ذهابك لزيارة أخيك ورؤية صاحبة حسام التي تسكن هناك ؟

– ....

– وما هي حكاية وجيه التي لم تذكرها في الرواية ؟

– ستقرئينها في الرواية الجديدة إن شاء الله .

– ولماذا حُكِمَ على خضر بالإعدام ؟

قال زميلي سيد الذي سمع جزءاً من الحوار وأدرك الورطة التي أنا فيها : سامي يمكن أن يكلمك عن ألفاظ " التابو " التي وضع مكانها نقطاً في الرواية .

فغضت طرفها ، واحمرَّ وجهها ، وانصرفت غاضبة .

– لقد أحرجتها يا سيد .

– هؤلاء الفضوليون لا يصلح معهم إلا هذه الطريقة .

ذكَّرني حديث زميلتي اليوم بقصة خِضر فقرَّرت البحث عن قصته فوجدت الآتي :

" بالأمس ٧/١٨ جاء خضر من الكتيبة ومعه ٣ علب بسلَّة ، وعلبة سردين كبيرة ، و٧ كيلو تقريباً بصل ، ٤ كيلو طماطم ،

وأشياء أخرى ، خِضر منذ تخلَّف عن الخروج مع دفعة مايو بسبب سرقة الظنط منه كما يدَّعي ، وعاد ليأخذ أيَّ ظنط ، وأنا أشك في كلامه هذا ، وأعتقد أن سبب عدم تسليمه مهماته وإنهاء خدمته هو ما ارتكبه من مخالفات ، بالإضافة إلى نقص بعض مهماته ، وهو كثيراً ما يُسْتَدْعَى للذهاب إلى الكتيبة ، وعندما يعود من الكتيبة يُحْضِر لنا كمية كبيرة من المُعَلَّبَات والخضراوات .

طبخت علب البسلَّة الثلاث ولم نجد جراية فنمت وأنا جائع حتى أيقظوني الساعة الخامسة وقد جاء التعيين والجراية " .

ثم وجدت : " ٢١/ ٧ لعبت مباراة جيدة ، وكانت لياقتي البدنية ومهارتي فيها لا بأس بهما وإن كُنَّا قد هُزِمْنَا بسبب سوء حالة حسام الذي كان يلعب مهاجماً ، بعد المباراة كنت متعباً جداً ، ولم يكن هناك ماء للاغتسال .. لم أجد إلا كوب ماء صغيراً شربته ، وجهزت طعاماً شهياً لحمة التعيين عملتها بالبيض الذي نشتريه رخيصاً جداً من البدو الذين يسكنون قريباً من السرية ويبيعوننا البيض واللبن بأسعار رخيصة جداً ، ولكن الفرحة لم تتم فقد كانت الجراية قليلة جداً فأكلت نصف بطن .

وفي المطبخ الذي ضمَّ خضر ، والباجوري ، وحسام شربنا شاياً وتسامرنا سمراً طويلاً ، كان أهم موضوع أثير هو ما قاله خضر

الذي أسميه اللص الظريف وهو جندي عادة عنده ٢٨ سنة .. نحيف جداً جداً .. جِلَد على عَظْم .. وجهه مسخوط ، وعيناه جاحظتان .. وكان المفروض أن يخرج في دفعة مايو الماضي دفعة أسامة ونور وراغب لكنه تخلَّف بسبب غيابه وسوء سلوكه وحكى لنا ما حدث له في سجن الكتيبة ، وحفل الاستقبال الذي عمله له المساجين ، واسم الممثلة الذي أطلقوه عليه ، والسلم المرسوم على الحائط الذي طلبوا منه أن يصعد عليه ، والأهوال التي رآها أول يوم له في السجن ، ثم حكى لنا حكاية أغرب من الخيال فقال إن ... الناقد الفني الشهير شاذ جنسيّاً ، وحكى لنا عن إحدى مغامراته معه فقال : " كنَّا ٤ أفراد أخذَنا في عربته "المرسيدس" إلى الطريق الصحراوي ، ثم انحرف بنا في مكان مقطوع حيث شربنا صندوق بيرة ، وأخذنا حبوب ... ، ... المخدرة ثم .... "

ثم مارسوا الفجور معه .

– " وعرفت تليفون بيته واتصلت بزوجته وقلت لها إن زوجها... (شاذ جنسيّاً) و... ، وأغلقتْ زوجته التليفون في وجهي ، وفي اليوم التالي أخبرني أحد أصدقائي أن زوجة ... نكَّدت عليه بسبب مكالمة من مجهول اتصل بها " .

وأكَّد حسام كلام خضر وقال : إنه قرأ في أحد الكتب التي تتحدَّث عن مثل هؤلاء اسم هذا الناقد وذكر أسماء أخرى شهيرة ، ولم أصدق أي شيء مما قاله خِضر فأنا لا أثق في كلام سيئي الخلق ، وإن نجح خِضر في هزِّ صورة هذا الناقد الذي كنت أعجب بآرائه الفنية ، وفكَّرت أن أكتب قصة في هذا الموضوع ، ولكني تراجعت لأن الموضوع لا يتناسب مع أسلوبي في الكتابة فأنا كاتب ملتزم ... " .

" ٧/٢٥ / ... أفطرنا فطاراً بسيطاً جداً قطعة خبز ببعض المربَّى ، الماء كان قد نفد من السرية منذ أمس ، وبتُّ عطشان ، ولم يكن في السرية قطرة ماء ، لم نغسل وجوهنا في الصباح ، ولم نشرب بعد الإفطار ، جاء لنا محمد أنور بكوب ماء من الصول إسماعيل ، وكان نصيب الفرد منه كوب شاي صغيراً فقط دون زيادة .

ما أسوأ أن تُحْرَم من مقوِّمات الحياة كالماء مُرْغَماً ولمدة طويلة، وأن تقوم بعد الأكل أكثر جوعاً ، وبعد الشرب ظمآن ، وبعد النوم نعسان ، أو تنام بالبيادة في الطلِّ ، وتستيقظ فتجد البطاطين مبللة بالندى ، الندى الذي كان رمزاً لجمال الصباح وتفتح الأزهار يتغيَّر معناه ليصير رمزاً لتكدير نومك إحساس صعب جداً .

في هذه الظروف الصعبة اختاروني مع المجموعة الذاهبة لإحضار طَفْلَة لبناء بعض المخازن ركبنا العربة الـ " يونيمك " التي سارت بنا في طريق وعر شديد الوعرة .. مرتفعات ومنخفضات كما لو كنَّا نصوِّر مشهد مطاردة في فيلم بوليسي ، وكان الأُمْباشي عليّ هو الذي يسوق وتعفَّر جسمي كله قبل الوصول لمكان الطَّفْلَة حيث كنَّا نركب في صندوق العربة الـ "يونيمك" وملأت الرمال عيني ، ونزلنا وحمَّلنا العربة بالطَّفْلَة بصعوبة وتعب ومشقة وصار الواحد فينا كأنه قد غمِس في بِرْكة تراب ، وكان الجو حاراً جداً وعطشنا واستبد بنا الظمأ ، وسدَّ الغبار حلوقنا ، فذهبت إلى كتيبة قريبة أنا وعبد الرحمن للبحث فيها عن ماء ، كانت كتيبة دبابات ، ولم نجد فيها إلا صولاً يبيض أحد المباني بالجبس فسألناه الماء فدلَّنا على شخص شربنا من عنده وكان شكلنا مثل الجنود المصريين الذين انسحبوا من سيناء وساروا على أقدامهم بعد نكسة يونيو ٦٧ أياماً طويلة بلا طعام أو شراب معفَّرين مغبَّرين شُعْث الرءوس مَنْهُوكي الأجسام ، لقد تعبت جداً بدنيّاً ونفسيّاً من نقلة الطَّفْلَة هذه ، وما كاد جسدِي يستقر على السرير حتى نُودي علينا لنأتي بنقلة جديدة، وبعد أن جمعنا لكي نذهب لإحضار النقلة طُلِبَ منَّا أن نُحَمِّل فناطيس الماء على العربة ، وأُلْغِيَ مشوار الطفلة الثاني وحمدت الله حمد

الشاكرين أنا وزملائي وحملنا الفناطيس على العربة التي ركب فيها أيضاً خِضر وأحمد قنديل لتوصيلهما إلى مخزن التعيين ليأخذوا عربة التعيين الذاهبة إلى كتيبتنا في الحَسَنَة ليسلموا مخلتهما فقد انتهت خدمتهما العسكرية ، وودَّعت خِضر وقنديل وتمنَّيت لهما حياة سعيدة في الملكية ، واستَحْلَفَنِي خِضر أن أزوره وذكَّرني بعنوانه الذي سبق أن كتبه لي قبل ذلك قال خِضر : أول شارع قبل كبري عباس يمين تمشي لغاية الكنيسة العمارة التي قدامها مَحِلَّنَا ، ولو تُهْت اسأل أي أحد عن "أبو خضر" مِئة مَن يَدُلُّك .. إياك أن تنسى .. أنت من أنظف النَّاس الذين رأيتهم في خدمتي في الجيش أنت ووجيه .. " .

وقبل أن أكمل لك عزيزي القاري بقية قصة خضر أعرض عليك يوما صعباً جداً مرَّ على في اليوم التالي :

" ٢٦ / ٧ / ... ذهبت لآتي بالتعيين ولسوء حظِّي كانت الجراية مع تعيين الغداء ، وكان هناك ٧ بطيخات ، حملت الجرادل ووضعتهما عن بوليس النقيب ثم ذهبت لأحضر شوال الجراية والبطيخ ، ويا لها من ساعة يا رب لا تحكم بها على عدو أو حبيب كان الشوال ثقيلاً ، وكلمة ثقيل هذه كلمة مخفَّفة جداً على الحِمل الذي أحمله ؛ فقد كان ثقيلاً جداً حملته على كتفي وبعد بضع خطوات وجدت ماء البطيخ قد جرى على ملابسي

فأنزلت شوال البطيخ بسرعة ، واحترتُ كيف أحمله والجو كان حاراً جداً جداً جداً تتجاوز درجة الحرارة ٤٠ درجة في الظلِّ ، وأنا أسير تحت أشعة شمس في كبد السماء . واحترت ماذا أصنع ؟ حملت الشوال بين يدي ، وسرت حوالي عشرة أمتار فقط ، وانقطع نَفَسِي ، وهُدَّ حِيلي ، وأشعة الشمس سهام تخترق كل جسدي وغرقت في عرقي ، لكن لا بديل عن حمل الشوال وتوصيله إلى السرية ، حملت الشوال بين يدي مرة ثانية وسرت نحو ١٥ متراً ، وطلعت روحي .. يا ستار .. يا رب .. يا معين ، لم أجد أمامي إلا طريقة واحدة ، هي الطريقة الوحيدة الممكنة ، وهي جر الشوال على الرمال ، لكن الشوال لم يكن فيه البطيخات السبع فقط كان فيه أيضاً جراية (خبز) السرية كلها ، ولو رآني أحد وأنا أجر الشوال " يصبح نهاري أسود " لكن ما العمل وأنا والشوال والشمس والصحراء ، ما باليد حيلة بعد أن تجاوزت ك١١٧ سحبت الشوال .. الشوال ما زال ثقيلاً جداً ، أسحب ٥ أمتار ينقطع نَفَسِي وترهق عضلات يدي وذراعي وكتفي فأتوقف لأسترد أنفاسي وأريح عضلاتي تحت أشعة الشمس الحارقة وكان الجو صيفيّاً حاراً جداً، ثم أسحب مرة ثانية ، هكذا دواليك أسير .. أتوقَّف .. أحترق حتى إذا لم يبق بيني وبين السريَّة إلا نحو ٣٠ متراً حملت الشوال بين يدي وسرت .. وسرت وضغطت على نفسي وكدتُ أموت فأنزلته على حدود السرية ، وقفت لأسترد روحي التي زهقت وكان

الحر شديداً وأشعة الشمس لهيباً ، وكنت أتمنَّى لو سحبت الشوال، لكن هذا الأمر لم يعد ممكناً وأنا على مشارف السرية ومبيت النقيب مفتوح ، لا مفرَّ من حمل الشوال ثانية ، وحملت بالفعل الشوال وجريت به حتى مطبخ النقيب ، وهناك أنزلته ، ولا تسألني كيف ، ولا تسألني عن حالي بعدها ، ويكفي أن تعرف أني كدت أموت على الحقيقة وليس على سبيل المجاز قلبي كاد ينفجر وسبح جسمي كله في عرقي ، والأفرول يعصر من كثرة العرق ، جلست على سرير طبَّاخ النقيب ، وأنا ألتقط أنفاسي كما يتلقط الميت آخر أنفاسه .

وبعد نحو عشر دقائق حملت الجرادل وذهبت إلى الفصائل ، ووضعت الجرادل عند محمد جمعة ، وأخذت إبراهيم معي ليحمل الشوال .. نظرت إلى وجهي في المرآة، ويا ويح ما رأيت .. رأيت شبحاً مع الاعتذار للشبح ، وجه مترهل .. غارق في العرق ، عينان غائرتان ، وأسفلهما دم أزرق كمهزوم في مباراة ملاكمة .. لم أستطع ترك التعيين إلا بعد أن تم توزيعه ، ورغم أني كنت أموت من الجوع إلا أنه لم يكن لدي رغبة في الأكل من شدة القرف والتعب الذي رأيته ، ولم أكد آكل ما يسد الرمق حتى خرجت إلى طابور الخدمة ، وكنت خدمة ثانية حملة لرابع يوم على التوالي ..." .

أرأيت عزيزي القاري كم يعاني جنودنا في الخدمة العسكرية أعانهم الله تعالى وجزاهم خيراً .

المهم نعود إلى موضوع خضر بعد البحث وجدت هذا الموقف " ٤/ ٨ / ... عاد محمد جمعة من إجازته وسألني عن بيادة خِضر ، وهل بدَّلها معي ، وأخبرته بالنفي ، وحمدت الله أني لم أبدِّلها معه وقد طلب مني ذلك وكدت أوافق ولكني تراجعت في آخر لحظة فقد لاحظت أنها ليست بيادته ولو كنت بدلتها معها لكنت الآن ضحية اللص الظريف ، فقد سرق خضر بيادة محمد جمعة الذي كان في إجازة وترك مخلته مفتوحة... " .

أستأذنك عزيزي القارئ في الانصراف مبكراً اليوم فاليوم يوم الخميس ، وقد نام شريف وروان ، وكما قال النبي " إن لأهلك عليك حقاً " فأنا ذاهب لأداء حق زوجتي عليَّ .

* * *

١٧

اليوم يوم الجمعة ، بعد الصلاة أخذت زوجتي ولديَّ وذهبت لزيارة أختها التي كُسِرتْ رجلها وهي تغسل الحمام وتحجَّجتُ بأن زوجها مسافر لأبقى في البيت أكمل حكاية خِضر .

وبعد بحث طويل لم أعثر على بقية الحكاية ، وخشيت أن يضيع اليوم في البحث فقلت أكتب المتيسر من المذكرات حتى أجد باقي حكاية خِضر .

" ٢٢/ ٦ / ... جلست في ظهر ف ٢ كعادتي كل مساء عندما لا يكون عندي خدمة أولى كما كُنَّا نفعل أيام الزملاء الأعزاء رآني محمود تربية فجاء وجلس معي وهو يقول: لماذا تجلس بمفردك يا أديب ؟

– كانت هذه الجلسة تضم خمسة أشخاص على الأقل .

– وماذا حدث ؟

– الأصدقاء الأعزاء خرجوا في دفعة مايو الماضي ، قبل أن تأتي أنتَ ودفعة المستجدِّين .

– وفيم كنتم تتكلَّمون ؟

– كنَّا نتكلَّم في كلِّ شيء : العام ، والشخصي .

- سمعتُ أنك تكتب قصصاً قصيرة .
- من قال لك ذلك ؟
- الباجوري ، كان يتحدَّث معي في الخدمة أمس ، وذكر لي أنك كاتب قصة ممتاز ، وأنك كتبت كثيراً من القصص للزملاء في السريَّة هنا .
- وهل عندك حكاية تريدني أن أكتبها لك قصة ؟
- لا .. أنا كاتب قصة مثلك .
- جميل .. هل معك شيء من قصصك ؟
- لا .. كلها في البيت ، وإن شاء الله الإجازة القادمة أحضرها لك .

قلت مازحاً : لم أعُدْ القاصُّ الوحيد في السريَّة .. في السريَّة كثير من الشعراء أو من يكتبون الشعر ولكن ليس فيها قاصٌّ غيرنا .

- شعراء !! مثل مَن ؟
- الباجوري شاعر جيد ، وكان أسامة يكتب الشعر ، ونور كان يكتب الزَجَل .

استأذن محمود تربية لأن عنده خدمة أولى ، وبقيت وحدي ".

وأنا أعرف عزيزي القارئ أنك في شوق لمعرفة قصة محمود كما كنت أنا في شوق لمعرفتها أيضاً ، وسوف أبحث الآن لك عنها .

بعد بحث في كشاكيل مذكراتي الحمد لله وجدت حكاية محمود .

" ٢٧/ ٧/ ... كنت أجلس بمفردي في ظهر ف ٢ أتأمل الغروب الجميل وإذا بمحمود تربية يقبل نحوي .. حَيًّا وجلس ، ثم قال لي: لقد أحضرت لك القصة التي حدثتك عنها قبل الإجازة .

وأعطاني القصة ، وبعد أن قرأتها قراءة سريعة ، طلبتُ منه أن يقرأها عليَّ فقراءة الكاتب لقصته يبعث فيها الحياة .

بعد أن قرأ محمود قصته التي تشبه حكايات كثيرة من نوعية حب إنسان لفتاة منذ كان صغيراً ، وعندما كبرا حاول أن يكلِّمها ويعبِّر لها عن حبه فقالت إنها لا تكلم أحداً في الشارع فطلب منها ميعاداً يقابلها فيه فرفضت ، وعندما كرَّر المحاولة مرة ثانية رفضت أن تردَّ عليه فكتب لها قصة من جزأين : الجزء الأول يعبِّر لها فيه عن قصة حبه لها وأشواقه الحارة إليها ، والجزء الثاني ينتقم منها فتخيَّل أنه قابلها بعد زمن طويل ، وقد أصبح مسئولاً كبيراً ، أما هي فقد تغيَّر حالها فشاخَت بعد شباب وقَبُحَت بعد حُسْن ، وذلَّت بعد عزٍّ ، وعرَضَتْ العودة إليه فرفض كما فعل عبد الحليم حافظ في فيلم " معبودة الجماهير " هذا ملخص القصة بجزأيها .

قلت له : هل عندك قصص أخرى غير هذه القصة ؟

- لا .. ليس عندي غيرها .. لماذا تسأل هذا السؤال ؟

- ستعرف بعد ذلك ، لكن قلْ لي : هل لك تجارب أخرى غير هذه القصة حتى ولو كانت قصصاً غير مكتملة كتبتها قديماً ؟

- لا أتذكَّر أني كتبت قصة غير هذه ؟ إنما كنت أكتب شعراً وبعض المقالات وأنا في المرحلة الثانوية ؟

- متى كتبتَ هذه القصة ؟

قال محمود مازحاً : ما كلُّ هذه الأسئلة ؟! هل تحلِّل القصة فنيّاً، أم تحلِّلني نفسيّاً ؟!!

قلت وأنا ابتسم : الاثنين ... " .

أستأذنك عزيزي القارئ في الذهاب للعزاء في صديق عزيز فَقَدْ تلقيت خبر وفاته منذ قليل ، لقد تُوِّفي صديقي هذا في ريعان الشباب بِدَاء لم يعرف الأطباء له سبباً .

***

١٨

قصيرة هي الحياة عزيزي القارئ نغرق في همومها أو في تفاهاتها أو تستغرقنا الأحلام أو الأوهام ، وتتسرب من بين أيدينا الأيام ، ثم نفيق على مرض لعين أو كارثة مفاجئة أو موت عزيز ، والعجيب أنه سرعان ما ننسى ونعود إلى همومنا ، أو إلى التعلُّق بأحلامنا أو الندم على ما فات .

وأنا أريد أن أقبض على الفرصة التي واتتني بعد لأْيٍ مهما عانيت ، وتحملت صنوف الشقاء والآلام البدنية والنفسية .

وهأنذا أكمل لك حكاية محمود تربية .

" جاء سمير ، وجمال ، وسعيد الشيخة وجلسوا معنا ، ودار الحوار حول توقيع النقيب تصاريح الإجازات اليوم أم أن دفعة الإجازة سوف تحجز كما يُشَاع ؟

بعد أن جلسنا مع الزملاء بعض الوقت ، قرأت في وجه محمود رغبة كبيرة في معرفة رأيي في قصته فاستأذنت أنا وهو من الزملاء وأخذنا نسير على حدود السرية وكان الشفق الجميل يلّون السماء .

قال محمود : وما نتيجة التحليل يا دكتور ؟

– أَجِبْني أولاً متى كتبت هذه القصة بالتحديد ؟

– بالتحديد في الثانوية العامة .

– الجزأين ، أم الجزء الأول ؟

– كتبت الجزء الأول في الثانوية العامة ، والجزء الثاني في السنة الأولى في الجامعة .

ابتسمت وقلتُ : هذا صحيح .

قال مندهشاً : وكيف عرفت أني كتبت القصة على مرحلتين ؟

قلت وأنا أضحك : يا بني .. لا يغرنَّك أني خريج حقوق فأنا كاتب قصة محترف .. لقد قرأت مئات القصص والروايات ، وعشرات الكتب في النقد الأدبي ، وعندي ...

– المهم .. ما رأيك في القصة ؟

كان الشفق الأحمر قد اختفى رويداً .. رويداً ، وبدأ نور القمر يظهر شيئاً .. فشيئاً ، وبعد أن نظرت في السماء لنحو دقيقة قلت له : الجزء الأول من القصة هو موجز لسيرتك الذاتية وليس قصة فنيَّة ، أما الجزء الثاني فهو حلم يقظة .

سكت محمود وقد بدت عليه الدهشة : أنت عبقري بالفعل كما يقولون .. وكيف عرفت ذلك ؟

– أولاً : إن ما قرأته عليَّ عبارة عن حكاية بها كثير من الزخارف اللفظيَّة المتكلَّفة وليس قصة قصيرة التي أهم سماتها الوحدة والتكثيف .

ثانياً : ليس هناك كاتب قصة لم يكتب في حياته إلا قصة واحدة.
ثالثاً : لقد مرَّ على كتابتك هذه القصة حوالي خمس سنوات، ولم تكتب في هذه السنوات الخمس أي قصة أو محاولة لم تكتمل.
رابعاً : عندما جاء محمد أنور توقَّفت عن القراءة وطويت القصة لو كنتَ تعتبر ما تقرأه قصة لأسعدك أن يسمعها أكبر عدد من الأفراد .

وأخيراً : ليس هناك كاتب قصة يقع في كمية الأخطاء اللغوية والنحوية التي وقعت فيها وصححتها لك أثناء القراءة .

– القصة إذن لم تعجبك .

قلت له بنبرة دافئة ، وكان الليل قد غطَّت ستائره السماء ، وبدا القمر في الأفق بدراً : دعك من القصة الآن واحكِ لي قصة القصة .

سكت محمود بعض الوقت وأخذ يحدِّق في القمر ثم قال : أنا كنت أحب فتاة حبّاً كبيراً كما ذكرتُ في القصة ، وعندما كلَّمتها في المرة الأولى وكنَّا في الثانوية العامة قالت لي : أبي في البيت اذهب فكلِّمه .

– ماذا قلتَ لها بالضبط ؟

– قلت لها : أنا أريد أن أتكلَّم معك في موضوع ، قالت : أي موضوع ؟ قلت : لو أنك لا تعرفين الموضوع فهذا يكون ردّاً على سؤالي .

– ما هذه الفلسفة ؟ هل هذا كلام يُقَال في أول لقاء !! المهم ماذا فعلت بعد ذلك ؟

– طلبتُ منها أن تقابلني في مكان حدَّدته لها ؛ فتركتني ومشت دون استئذان بعد أن قالت لي : أبي في البيت اذهب فكلِّمه .

– وماذا فعلتَ ؟

– في المرة التالية حاولت أن أكلِّمها وأفهمها أني أريد أن أعرف رأيها ، وعندما يحين الوقت المناسب سأكلِّم والدها .

– فلم تردَّ عليك كما ذكرت في القصة ؟

– نعم .. وتضايقت كثيراً ، وكتبت الجزء الأول .

– كتبته كرسالة ؛ لتقول لها ما لم تستطع أن تقوله ؟

– نعم .

– وهل أعطيتها الرسالة أقصد القصة ؟

– كنت خائفاً أن ترفض أخذها منِّي كما حدث في آخر مرة عندما رفضت الردَّ عليَّ .

– فماذا فعلت ؟

– لا شيء .. تألَّمت بعض الوقت ، ثم واصلت مذاكرتي فقد اقترب ميعاد امتحان الثانوية العامة .

– وفي الجامعة حاولت أن تكلَّمها مرة ثانية فلم تردَّ عليك فكتبت الجزء الثاني لتثأر لكرامتك ؟

ابتسم محمود وقال : لا .. يا عبقري ليس كذلك .. إنما الذي حدث أني دخلت كلية تربية جامعة عين شمس ، ولا أدري أي جامعة أو كلية دخلتْ ، وفي يوم من الأيام وبينما كنت واقفاً في البلكونة رأيتها تمر من أمام بيتي عائدة من الكليَّة .

- ومن أدراك أنها كانت عائدة من الكليَّة ؟

- هي بنت مؤدبة جداً ، ولم تكن تخرج بمفردها إلا لتذهب إلى المدرسة أو إلى الدروس.

- واضح من كلامك عنها أنها فتاة مؤدبة جداً ، وماذا حدث بعد ذلك ؟

- كانت رائعة الجمال ترتدي فستاناً كاروهات أحمر وتحمل في يدها حقيبة صغيرة حمراء وحذاء أحمر كذلك ، وشعرها الأسود الفاحم مرسل على ظهرها ، لم أكد أراها حتى تفجَّر بركان الشوق مرة ثانية ، ولكن ماذا أفعل وقد جرحتني في آخر مرة حاولت أن أكلِّمها فيها ، ودون أن تراني بدأت أرصد مواعيد ذهابها إلى الكلية والعودة منها .

- بأيِّ كليَّة التحقت ؟

- لم أكن أدري ساعتها .. بعد نحو شهرين من بداية الدراسة كنت أتحدَّث مع صديق لي دخل كلية التجارة جامعة القاهرة ، وسألته هل معك زملاء من المنطقة ، قال : نعم .. خالد ،

ورضا. قلت : غير هذين فأنا أعرفهما ، قال : هناك : طالبة أخرى . سيطر عليَّ إحساس أنها هي قلت له : هل كانت تلبس اليوم فستاناً أخضر ، قال : لا أتذكَّر ، قلت له : هل تعرف بيتها؟ قال: لا . قلت : أنت قلت : إنها تسكن نفس الحي ؟ قال نعم : ولكني أنزل من الأتوبيس قبلها ، وسألني عن سر اهتمامي بها فقلت له ليتك يا أحمد تعرف لي اسمها كاملاً وأين تسكن ؟

وبعد يومين أو ثلاثة قابلت أحمد صديقي وقال لي : لقد عرفتُ بيتها . فقلت له كيف حدث هذا ؟ قال بالأمس كان الأتوبيس مزدحماً ولم أتمكَّن من النزول في محطتي ، ونزلت في المحطة التي بعدها ، التي نزلت فيها صاحبتنا فانتهزتها فرصة وسرت وراءها وعرفت بيتها ، قلت بلهفة ، وأين هو ؟

فأخذني أحمد وأراني منزلها ، ويا لها من مفاجأة جميلة حقاً ، إنها : هي .. هي . صارحت أحمد بحكايتي معها وبحبي الشديد لها ، وطلبت منه أن يتابعها ويعرف كلَّ شيء عنها .

استطاع أحمد أن يتعرَّف على صديقة لها وحدَّثها عني كشاعر، وكاتب مقالات وقصص ، ذهبت مع أحمد إلى الكلية وعرَّفني بسامية صديقتها وقرأت عليها بعض أشعاري القديمة وأعطيتها بعض كتاباتي الأخرى وبينما نحن واقفون إذ رأيت حنان تقف مع صديقتين لها على بعد نحو عشرين متراً ، وكانت ترسل شعرها الناعم الفاحم الطويل وترتدي الفستان الأحمر الكاروهات – يا ويح

قلبي – وكانت تنظر إليَّ ولا ترفع عينيها عنِّي وأنا كذلك لدرجة أن صديقتيها طلبتا منها أن يدخلن مبنى الكلية وكانت تسير معهما وعيناها معلَّقتان بي وكان منظراً عجيباً.

أخذت أتجوَّل مع أحمد بعض الوقت في الكليَّة ، ثم رأيتها مرة أخرى تقف أمام مبنى الكليَّة ثم اختفت ، وبعد انتهاء المحاضرات رأيتها تسير نحو باب الخروج فتبعتها أنا وأحمد خطوة بخطوة دون أن ترانا أو كُنَّا نحسب أنها لا ترانا وإذا بها تقابل إحدى صديقاتها وتلتفت إلينا وتنظر بلحظها – هذا اللحظ الذي لم يرفع عني في كلِّ مرة رأتني فيها – المهم عَرَفتْ أننا نسير وراءها فبدأت تسير ببطء ولم نجد بُدّاً من تجاوزها وبالفعل تخطيناها وخرجنا ووقفنا على محطة الأتوبيس ومرَّت من إمامي وأنا أحدِّق فيها ولاحظت أن هناك عِرقاً أزرق يظهر عند خدها الأيمن .. وقفتْ بعض الوقت على المحطة المزدحمة ثم تركتها ومشت .

وجاء الأتوبيس بعد أن مشت عدة خطوات وركبتُه أنا وأحمد ونظرتُ إليها فوجدتُها تنظر إليَّ بل تبحث عنِّي في الأتوبيس .

– اعتقد أنها سارت بعيداً عن الأتوبيس لتعطيك الفرصة للسير وراءها وتكلِّمها بدليل بحثها عنك في الأتوبيس .

– المهم عدت إلى البيت وأنا أطير من الفرحة وصورة حنان لا تفارق عيني وأفكِّر متى سأعود إليها ولكن للأسف جاءت إجازة نصف السنة .

بعد الإجازة ذهبت عدة مرات وكانت هناك ندوة وطلبنا من سامية أن تدعوها إليها ، وذهبت سامية فحدثتها لمدة دقيقتين ثم عادت وقالت إنها مضطرة للعودة إلى البيت لأنه ليس فيه أحد أو شيء من هذا القبيل ألحَّت عليها سامية إلحاحاً شديداً لكن حنان اعتذرت.

– كيف تأتي لتتكلم معك وأنت تكلِّم صديقتها في كلِّ مرَّة تأتي فيها إلى الكلية ، لماذا لم تكلِّمها مباشرة على انفراد ، وتنهي الموضوع ؟!

– أنا كنت خائفاً من أن ترفض الردَّ عليَّ كما فعلت من قبل .. المهم احتلنا على سامية لكي تعطيها القصة ... " .

أستأذنك عزيزي القارئ في الذهاب لإحضار زوجتي ؛ فقد اتصلت بي وطلبت مني ذلك ، وكان هذا رأيي أيضاً لأن الوقت قد تأخرَّ .

***

١٩

أخذت اليوم إجازة عارضة لكي أنجز قدراً كبيراً من الرواية وأكمل لك عزيزي القاري حكاية محمود تربية .

"قلت لمحمود : كيف احتلت على سامية؟

- أنت تريد أن تعرف أدقَّ التفاصيل .
- نعم .. ربما تكون تفصيلة صغيرة هي مدخل القصة .
- هل تنوي أن تكتب حكايتي قصة ؟
- ربما لو انفعلت بها ، أو بموقف فيها .
- كانت حنان غير مُحجَّبة ، وتناقشنا مع سامية في كيفية إقناع حنان بالحجاب ، وأكدَّ لها أحمد أني أستطيع أن أقنعها به لو أقنعَتْها بالحديث معنا ، واقترحتُ على سامية كعملية تمهيدية أن تتعرَّف عليَّ كشاعر وكاتب قصة ثم شيئاً فشيئاً يمكن أن أفتح معها موضوع الحجاب لأن النصيحة المباشرة تكون في الغالب مُنَفِّرة .

فقلت مازحاً : أنت تَنْصُب باسم الدين ، تخدع سامية لتعرفك على حنان لتكلمها في الحجاب وأنت تنوي أن تكلمها في الحب .

أحسس محمود بالحرج فسارعت قائلاً : أنا أمزح معك .. أكمل.. أكمل .

- اتفقنا مع سامية أن تعطيها القصة ، وكانت في بداية تعرفي على سامية قد أعطيتها بعض المقالات والأشعار وهذه القصة ، ولأثبت لها أني كاتب قصة كما أخبرها أحمد فقد كتبت الجزء الثاني لأن الجزء الأول لا تعتبر قصة مكتملة إنما تبدو كرسالة – كما قلتَ أنت – وأعطيتُ سامية القصة بجزأيها وقرأتها ، وكتبت لي تعليقاً مطولاً عنها ، وأعطتها لصديقة أخرى وكتبت هي الأخرى تعليقاً موجزاً عنها ، وردُّدت على التعليقين بإسهاب ، لذا عرضتُ على سامية أن تعرض على حنان القصة كمدخل للحديث معها .

- القصة بجزأيها ؟!!

- نعم ..

شدَّتني الحكاية كحكاية نور وأسامة من قبل ، مع أن محموداً لم يكن حكَّاء بارعاً كنور وأسامة ، ولكنه كان يحكي بكلِّ حواسه لذا قلت لمحمود بلهفة : وماذا حدث بعد ذلك ؟

- ويوم أن تمكَّنت سامية من إعطاء حنان القصة بجزأيها جاءني أحمد ليبشِّرني بنجاح الخطة وحضنته بشدة وأخذت أضحك وأقفز مثل الأطفال لأن أمنية حياتي كانت أن تعرف حنان حقيقية مشاعري تجاهها ، والحمد لله صوتي وصل إليها وقرأتْ ما أريد أن أقوله لها .

سرتُ أنا وأحمد وأنا أقفز وأضحك بصوت عالٍ .. يااااه كان يوماً جميلاً حقاً ، وبعد يومين أخبرني أحمد أن حنان أعادتْ القصة إلى سامية وقالت لها : إنها لم تقرأ إلا الجزء الأوَّل ، وعندما سألتْهَا عن رأيها في القصة قالت بانفعال شديد : " قصة زِفْت ، وصاحبها زِفْت ليس هناك حاجة اسمها حب ولا كلام فارغ" ونزلت هذه الكلمات كالصاعقة وانقبض قلبي وحاولت أن أفسِّر أنا وأحمد هذا التصرُّف منها ورأيها الغريب في القصة فقلتُ لأحمد : إن القصة جميلة باعتراف كل من قرأها ولاسيما زميلاتها ، وإذا كانت القصة لم تعجبها فلماذا تشتم المؤلف ؟!

وكيف لم تقرأ إلا الجزء الأول كما تدَّعي وهي تعرف أن القصة قصتي كتبتها فيها ؟!

– هل كتبت اسمك على القصة ؟

– كتبت " المؤلف ، نجم بلا سماء " والحروف الأولى من اسمي الثلاثي واسم الحي والتاريخ .

– وماذا كنت تنتظر أن تقول ، وأنت ترسل لها قصة تسيء إليها فيها إساءة بالغة وترسلها مع صديقتها التي تعرف أنها قرأت القصة، وربما توقَّعت حنان أنك تركتها وأحببت سامية صديقتها ، وأن سامية تعرف أن حنان هي بطلة القصة .

– أنا أدركت هذا لكن بعد وقوع الخطأ .

– ليس خطأً يا بني أنت ارتكبت جريمة في حقِّ هذه الفتاة ، وماذا فعلتَ بعد ذلك يا فالح ؟

– رغم أنَّ ردَّ حنان كان طبيعياً إلا إنني أمضيت ليالي قاسية بعد ذلك وكلما تذكَّرت رأيها في القصة وصاحبها انقبض قلبي ، وذهبت إلى الجامعة بعد ذلك وقابلت سامية وكانت معها فتاة أخرى وطلبت من سامية أن تأتي بحنان حتى أناقشها في رأيها .

– ما هذا العَبَط ؟ كيف تريد أن تناقش حنان أمام زميلاتها في القصة التي أسأت إليها فيها ؟!!

– أناقشها كمؤلف في قصة فلم يكن أحد يعرف قصتي معها غير أحمد فقط .

– بالطبع رفضت أن تناقش الكاتب الذي فضحها وسط زملائها ؟

– نعم .

– وأكيد الموضوع انتهي عند هذا الحد ؟!

– لا .. فقد أدركت خطئي ، وحاولت في العام التالي أن أنتهز فرصة وجودها بمفردها ، وأكلِّمها ، وكانت ترفض في كل مرة حاولت أن أكلِّمها فيها أن ترد علىَّ .. وتتركني وتمشي .

– هذا أقلُّ واجب ، ولو شتمتك ما لامها أحد .

– حاولت مرة ثانية ، وثالثة في أماكن مختلفة دون جدوى .

– طبيعي .

– ولكن ما ليس طبيعيّاً أنها كانت تبادلني النظرات في كلِّ مرة رأيتها فيها ، وفي مرة كانت تجلس أمامنا في المحاضرة .

– هل كنت زميلها في الكلية ؟

– لا أنا في كلية تربية جامعة عين شمس ، وهي تجارة القاهرة، ولكن كنت أذهب إليها أحياناً ، وانتهز الفرصة لأكلِّمها .

– كان عليك أن تكلِّمها بمفردها من البداية بدلاً من موضوع سامية والقصة واللف والدوران .

– هذا ما حدث ، ذهبت إليها في الكلية ذات يوم وكانت تجلس أمامي أنا وسامية وتحاول أن تريني الخاتم الجديد الذي في يدها وفيه فصوص زرقاء ، وكانت تلتفت للوراء بزاوية ١٤٥ درجة لتراني مما يؤكد اهتمامها بي .

– ربما تكون قد خُطِبت ، وهذا خاتم الخطوبة ، وهي تريد أن تردَّ لك الصفعة .. وبالطبع امتنعتَ أن تذهب إليها بعد ذلك وتركتها ؟

– لا .. استمررت في الذهاب إليها ومحاولة الكلام معها .

– وهل عَفَتْ عنك وردَّت عليك ؟

– لا .. وفي يوم من الأيام وبينما أنا أسير أمام بيتها فوجئت بمن ينادي عليَّ .. محمود .. محمود ، وعندما التفت فوجئت أنه حمادة أخوها .. صافحته وسار معي فأنا أعرفه كأحد أبناء الحي،

ولكن لم يكن لي علاقة مباشرة به ؛ فهو أصغر مني بنحو خمس سنوات .

– المهم ماذا قال لك ، أو قلتَ له ؟

– قال لي : " أنا أخو حنان ، وحنان قالت لي : أنك ذهبت إلى كليتها اليوم وحاولت أن تكلَّمها، وتركتك ومشت .. فإياك أن تذهب إليها مرة أخرى ، أو تكلَّمها ، ولو قالتْ لي : إنك ذهبتَ لكليتها مرة ثانية ... قاطعته قائلاً : ماذا تقول ؟ لا بد أن تعرف الحكاية من البداية .. الحكاية إنها هي التي كانت تنتظر إليَّ وكلٌّ زميلاتها يعرفن ذلك ، وأنا على استعداد أن آخذك إلى الكلية وتسألهن بنفسك ؛ فأنا إنسان محترم .

– ما هذا الذي قلته لأخيها ؟!!! .. أنت بِعْتَها ، وتخلَّيت عنها، واتهمتها أنها هي التي تحبَّك ،هل هذا كلام يُقَال لأخيها؟!! هذا بدلاً من أن تظهر له حسن نواياك ، وأنك تريد أن تخطبها .

– أخطب مَنْ ؟ أنا كنت في سنة أولى أو سنة ثانية ، ولن أستطيع أن أُقْدم على خطوة كهذه قبل خمس سنوات ، في أحسن الظروف .

– ولماذا إذن كنتَ تريد أن تكلِّمها ؟

– أنا أحبها .. أحبها جداً .. وكنت أريد أن أعرف رأيها .. ثم نفكِّر سوياً في مستقبلنا كأي حبيبين .

– المهم .. ماذا قال لك أخوها بعد أن اتهمتَ أخته أنها كانت تنظر إليك ، وعلى استعداد أن تثبت له هذا بشهادة زميلاتها ؟!!!

قال لي : أنا كنت أنوي أن أضربك وأنا أصلاً ملاكم . قلتُ له هازئاً : عليك أن تُحضر رجالك ، وأنا أحضر رجالي ونتقابل في الفجر فوق جبل المقطم .. يا بني ماذا تقول تضرب مَنْ ؟! وعموماً أنا مُقدِّر مشاعرك ، وأنك في موقف صعب .. لكن لابد أن تعرف الحكاية من البداية .. أنا عندما أرسلت لها القصة .. هل تعرف موضوع القصة ؟ قال : نعم ، واكتشفتُ بعد ذلك أنه لا يعرفها ، قال حمادة: إن أبي صعيدي ولو عرف أنك تعاكس ابنته لقتلك .

– وماذا كان رد فعلك ؟

– كنت آخذ تهديداته بصدر رحب ، المهم كان كلامي مع حمادة يدور حول إنها هي التي كانت تنظر إليَّ والكل يعلم ذلك وهي التي شجعتني على الكلام معها ، فقال لي : إذا كان هناك شيء بينك وبينها من قبل فهذا الموضوع انتهى ، وهي وعدتني أنها لن تكلمك مرة ثانية ، وأحسست ساعتها أن حنان تحبني أو على الأقل كانت تحبني .

وتعجب أحمد صديقي من موقف أخيها بعدما حكيت له ، وقال: لماذا تخبر حنان أخاها الفتى الصغير بهذا الموضوع ؟ ولماذا لم تنهي هي الموضوع معك بنفسها ؟!

قلت لمحمود : لو لم ترسل لها القصة ، ربما كانت قد كلَّمتك بنفسها ، ولم ترسل لك أخاها ليعرف قصدك ، وأنت بدلاً من الظهور بدور الفارس أمام أخيها وتظهر له احترامك لها ، وأن غرضك شريف رحت تتهمها بأنها هي التي كانت تنتظر إليك و...

قال محمود كأنه اكتشف شيئاً جديداً : هل أرسلت أخاها ليعرف قصدي من محاولة الكلام معها ، لا ليهددني ويطلب مني الابتعاد عنها ؟!

– هذا أمر طبيعي إذا كانت البنت مؤدبة ، ومنذ نحو شهرين حكى لي أسامة الذي خرج دفعة مايو الماضي أنه عندما فاتح حبيبته في أمر الحب لم تجبه ، وكلَّمت أختها الكبرى التي اتصلت به وطلبت مقابلته ، وعندما التقى بها سألته عن غرضه من حديثه مع أختها ، ولكن أسامة لم يفعل مثلما فعلت بل أبدى حسن نيته ورغبته في خطبتها ، ورغم معارضة أبيها إلا أن الخطبة تمَّت بسبب إصرار الحبيبين عليها .

– أخو حنان قال لي : إنها سوف تخطب في إجازة الصيف .

– هل قال لك ذلك ؟

– نعم .. وأنا قلتُ له : ألف مبروك .

– ربما كان كلامه صحيحاً وهي رفضت أن تكلِّمك بسبب مشروع الخطوبة هذا ، وهذا يؤكِّد حرصها على أن تُريك خاتم الخطوبة كما أخبرتني .

- موضوع الخاتم كان قبل لقائي بأخيها بنحو شهر ، ولم تكن قد خطبت بعد ؛ فأخوها قال لي : إنها سوف تخطب في الإجازة ، وكان هناك أكثر من ستة شهور متبقية على إجازة آخر السنة .
- وهل خطبت بالفعل بعد ذلك ؟
- لست أدري .
- وهل انتهى لقاؤك بأخيها عند هذا الحد ؟
- لا .. لقد طلبتُ منه أن يواجه أخته بما قلتُه له من أنها هي التي شجَّعتني على الحديث معها .
- أنت مُصرٌّ على الإساءة إليها بكلِّ أنواع الإساءة ، وبدلاً من أن تصلح ما أفسدته تزيد الطين بلة ..وماذا قال لك بعد ذلك؟ أنا أسف على كثرة مقاطعتك وربما هذه المرة الأولى التي أقاطع فيها أحداً يحكي لي ما يرغب في حكيه عن حياته ، لكن تصرفاتك مُستفزَّة ولا أستطيع أن أمنع نفسي من مقاطعتك .
- لا يهمك .. اسأل ما تشاء .
- ماذا قال لك أخوها ؟
- عندما قابلته في اليوم التالي قال لي : إنها حَلَفَتْ له على إنها لن تنظر لي مرة ثانية ، وقال لي : يجب ألا تذهب إليها مرة ثانية. فقلت له : أنا أذهب إلى الكلية كيفما أشاء لزيارة أصدقائي، لكن لن أنظر إليها ولن أكلمها مرة ثانية .

- وهل ذهبت إلى كليتها بعد ذلك ؟

- ذهبت مرتين أو ثلاثة ، ولم أنظر إليها على الإطلاق لأثبت لها أني لست جباناً ، وأني لا أخاف من تهديد أخيها ، ثم وجدت بعد ذلك إن الموضوع أصبح سخيفاً فاهتممت بدراستي وحاولت نسيان الموضوع كله .

- وهل نسيته .. نعم حوالي ثلاث سنوات لم أرها فيها ، وتقريباً نسيتها تماماً ، حتى رأيتها بعد ذلك مرتين أو ثلاثة .

- وماذا كان إحساسك عندما رأيتها بعد هذه السنين ؟

- نظرتُ إليها وأطلتُ النظر ، وبادلتني نظراً بنظر ، وأحسست أنها ما زالت تحبني .

- هل خطبت أم لا ؟

- لست أدري .

- احتمال كبير أنها تكون قد خطبت فهي جميلة جداً كما ذكرتَ ، وفي الغالب أن الجميلات يخطبن قبل أن يتخرجن ، أو بعد تخرجهن مباشرة .

- ما رأيك فيما سمعت ؟

- هذه البنت كانت تحبك جداً ، وأنت أسأت لها إساءات بالغة، وإذا تعبتْ نفسيّاً فستكون أنتَ السبب ، وذنبها في رقبتك .

تأثَّرت جداً بحكاية محمود ، وصادفتْ هوى في نفسي ؛ فقد ذكَّرتني بسلوى ومحاولة إعطائها الخطاب في محطة الأتوبيس النهري وقررت .." .

حان الآن ميعاد المسلسل الذي تشاهده زوجتي .. حاولت أن أكمل لكني لم أستطع ؛ فقد كان صوت التليفزيون عالياً جداً ، وطلبت أكثر من مرة بأكثر من طريقة أن تخفض الصوت أو تتوقَّف عن إجابة أسئلة شريف التي لا تنتهي حول المسلسل دون جدوى ، فلم أملك إلا أن أطوي أوراقي وأنتظر الفرصة المناسبة لمواصلة الكتابة؛ فقد كان الكمبيوتر الذي أكتب عليه في الصالة التي فيها التليفزيون ، وفكَّرت كثيراً في نقله إلى مكان آخر في الشقة ، ولكني لم أجد فشقَّتي صغيرة ، والحمد لله الذي لا يحمد على مكروه سواه .

***

٢٠

الحمد لله زوجتي نامت مبكراً اليوم بسبب مرضها بنزلة برد .. وربَّ ضارة نافعة ، ومصائب قوم ... المهم انتهزتُ الفرصة لكي أنقل لك عزيزي القارئ القصة التي كتبتها عن حكاية محمود تربية، ولكن قبل أن أنقل لك القصة التي كتبتها عن حكاية محمود تربية أحكي لك كيف فكَّرت فيها ، وفرصة زوجتي مريضة ونائمة .

" ١١/ ٨/ ... فبعد أن قرأت قصة محمود وحكى لي حاكيته مع حبيبته حنان تذكَّرت حبيبتي سلوى وكان قد مرَّ عليَّ حوالي ١٥ يوماً لم أكتب فيها قصة ، ولم أفكِّر في قصة ، وليس في عقلي موضوع لقصة ، وهذا شيء يضايقني فأنا تعوَّدت أن أكتب قصة جديدة كلَّ أسبوع على الأقل ، ولكن مضى أسبوعان ولم أكتب شيئاً ، هل يرجع ذلك للتعب الذي نشعر به أنا وزملائي من كثرة التدريبات والأعمال هذه الأيام وقد اقترب مشروع الحرب الذي نستعد له ، وهذا الوضع يقلقني جداً ، لذا استغللت خدمة الأمس ، الثانية سلاح ، وتخيَّلت أني أصبحت محامياً معروفاً ، وعندي مكتب ، وشقة ، ومعي مبلغ مناسب من المال ، ولم يعد هناك مانع من التقدُّم لسلوى حبيبة عمري ، وتخيَّلت أني قابلت أباها يوم

الجمعة بعد الصلاة في جامع عمرو، وجلست معه وحدثته عن نفسي وإمكانياتي، وطلبت منه يد سلوى فاستمهلني أسبوعاً ليسأل عني ، ويسألها ، وبعد أسبوع ذهبت ، ودخلت علينا سلوى تحمل صينية الشاي ، وجلستْ ، وتكلَّمتُ عن عملي وأهم قضايا المكتب، والمشاهير الذين أمسك لهم قضاياهم ، وقصصي القصيرة التي سوف تصدر في كتاب قريباً ، وسألني أبوها عن أهمية الأدب فشبهته بالفاكهة التي يأكلها الإنسان لحُسْنِ طعمها دون التفكير في الغالب في قيمتها الغذائية ، فيستمتع بالطعم وفي نفس الوقت يستفيد الجسم ، وكذلك الأدب تستمتع بقراءته ويتغذَّى عقلك وقلبك بالأفكار والمعارف والعلوم في نفس الوقت ، وهذا هو الفرق بين الأدب والعلم ، فالعلم كحبة الدواء والأدب كالفاكهة .

وبعد ذلك يطلب مني أبو سلوى أن أحكي له إحدى قصصي فأقول له : ليس معي قصص الآن .

– لخص لي إحدى القصص .

– إن قيمة القصة في أسلوبها ولغتها ، وإذا لُخِّصت فقدت أهم عناصرها كالشعر .

وفي اللقاء الثاني أخذت معي قصة " مذكرات شاب مصري " وقرأتها عليه وشرحت له أبعادها ، ثم خلُّو بيني وبين سلوى فنظرتُ إليها نظراتٍ حب وسألتني عن بطلة القصة ، وهل هي

قصة حقيقية أم من وحي الخيال ، وابتسمت حتى بدت نواجذي وسكت .

وأكملت سلوى : هل تحب بطلة القصة ؟

قلت لها وأنا أنظر إليها نظرة طويلة وَلِهَة : منذ حوالي ١٨ سنة وبالتحديد في فصل ٥/٢ سألتيني نفس هذا السؤال ، ولم أستطع ساعتها أن أجيبك على سؤالك ، ومرَّت الأعوام وحاولت أن أجيبك على سؤالك ولكني لم أستطع ، وتمرُّ الأعوام ، وتطلبي مني الإجابة ثانية بعد ١٨ سنة وشهرين و١٦ يوماً ، ونظرت في ساعتي ، وقلت : و٦ ساعات وتقريباً ٢٥ دقيقة .

مرَّ الزمان سريعاً وكأن سؤالك لي كان بالأمس .. وشعرَتْ بالخجل فغيَّرتْ الموضوع وسألتني : كيف تؤلِّف قصصك ؟

– لقد كتبت هذا في إحدى قصصي وهي قصة "أحلام اليقظة".

ومرَّت الأيام بسرعة ووجدتني في ليلة الزفاف وقد كانت سلوى تلبس فستاناً أبيض جميلاً وتجلس على السرير وتغضُّ طرفها حياء ، وأحاول مداعبتها دون جدوى فأقول لها : إذا لم تكفِّ عن خجلك هذا فسأعمل معك ما عمله بطل قصة " الانتقام " في زوجته التي كان يحبها فتفزع فزعاً شديداً .

فأقول لها : أنا أمزح معك .

وأعترف لها اعترافاً خطيراً بأن في حياتي أسراراً مجهولة لا يعرفها أقرب المقربين إليَّ ...

هذا ما تخيلته في أحلام اليقظة في الخدمة وسعدت به فترة .

بعد الخدمة أكلت أنا ومحمد عبد الرازق ما أبقى لنا الزملاء من التعيين ، ونمت ، وحلمت أني أرتدي ملابسي الميري وذاهب إلى بيت سلوى ، ثم استعرت قميص نور زميلي في الجيش بطل قصة " في الطريق " لأدخل به ، ولأمرٍ لا أدريه لم أتمكن من الدخول ، ولم تسمع سلوى ما بي ، وهذا الحلم تكرَّر كثيراً في خلال السنوات الأربع الماضية ، تتنوع الأحداث لكن المضمون واحد بيت سلوى ، وعدم تمكني من الدخول إليها ، مع رغبتي الملحَّة في هذا ، وأخشى أن تكون هذه عقدتي التي لا أبرأ منها ، وربنا يستر ، أتمنَّى أن أقرأ هذا الكلام وأضحك عليه ، وأسخر منه " .

لا أدري بعد أن قرأت هذا الكلام دقَّ قلبي بعنف ، أستأذنك عزيزي القارئ في أن أطمئن إلى أن زوجتي نائمة .

الحمد الله عندما اقتربت من حجرة النوم سمعت شخيرها فعدت على أطراف أصابعي ، لقد أثر فيَّ الحلم وما كتبته تعليقاً عليه فما زلت أحلم بـ ... وأشتاق إليها كثيراً هذه الأيام لا أدري لماذا ، ومع أني لم أرها منذ تزوجَّت وتركت بيتها القديم ، ولا أخفيك سراً أني عندما أكون قريباً من بيتها القديم أذهب إليه ، وأطوف حوله

وأتمنَّى من كلِّ قلبي أن أراها ، أو أعرف أي خبر عنها ، كنت أظن أني نسيتها ، وأني لم أعد أفكر فيها ، ولكن مع كثرة الخلافات مع زوجتي ، وانشغالها بشريف وروان عنِّي ، وجدت نفسي أفكِّر فيها ثانية ، وأستعيد ذكرياتي معها هذه الذكريات أجمل ما تحفظه الذاكرة ، ويسكن في القلب ، ويسعد النفس ...

– أما زلت مستيقظاً ؟! قم لتنام .. أنسيت أن عندك عملاً في الصباح ؟!

***

٢١

لم يفزع قلبي ويرتعد جسي كله في حياتي فزع الليلة الماضية إلا فزعي يوم ١١/ ٧ يوم كنت عائداً من أجازة عيد الأضحى والحكاية كما دونتها في مذكراتي حينها كالآتي : " سمعت سائق ميكروباص ينادي : أم خشيب ، ركبت وكنت آخر واحد في العربة جلست على جردل بلاستك صغير وتحركت السيارة وأدار السائق أغنية " فات الميعاد " لأم كلثوم وهي أغنية رائعة حقاً وكلماتها جميلة ؛ تأثرت بها جداً لأنها تتكلم عن البُعْد والعذاب ، والحب الذي كان ، والحبيب القاسي ، وكل المشاعر التي مرَّت عليَّ ، وكان الجو مهيأ لهذه المشاعر لأن السيارة كانت تسير في شوارع السويس والمصابيح مضاءة وجميلة ، وأثناء عبورنا نفق الشهيد أحمد حمدي رأيت عربات حجاج كثيرة آتية عن طريق نويبع والشنط مكدسة فوق السيارات كان منظراً جميلاً ، ثم سارت العربة وسط الظلام الجميل الشاعري ، والهدوء المقمر ، وأم كلثوم ما زالت تشدو " فات الميعاد " نبهت السائق أكثر من مرة أني أريد النزول عند سرية حرس الحدود ، لكن الذي حدث أنه نسي وأنزلني في منطقة غيرها والظلام كان شديداً ، والقمر مخنوق ، سرت في الطريق ، لا أدري إلى أين أسير ، ومعي حمل ثقيل ،

والخوف من المجهول أثقل ، سرت بعض الوقت على الطريق الأسفلتي ، ثم توغَّلت في الصحراء والرمال لعلِّي أجد أيَّة كتيبة ؛ لأسأل أحد أفرادها : أين أنا ؟ ، ولأسأل عن سريتي ، كانت رجلاي تغوصان في الرمال كما تغوص في الأوحال ، ورأت عيناي النباتات الصحراوية السوداء تتحرك كالأشباح ، والريح تصفر في أذني كأبواق عربات النقل الثقيل ، وكان الحمل الذي أحمله ثقيلا ٢.٥ ك بصل، ٢ ك أرز، ٢ ك سكر ، ١.٥ طماطم، ١.٥ فاصوليا خضراء ، وزجاجة زيت كبيرة ، هذا بخلاف الملابس والكتب وأشياء أخرى ، كنت في موقف عصيب جداً جداً تعجز الكلمات عن وصفه ، لا أدري لماذا تذكَّرت كل الحكايات التي كنت اسمعها عن أشباح شهدائنا ، وآخرها ما قاله لي عبد الجيِّد قبل الإجازة أن جنديا كان واقفاً خدمة على البوابة ليلاً وكان يفكر في الإجازة فقد مر عليه شهر ولم ير أهله فسمع جنديا يقول له : " فما بالك بمن لم ينزل إجازة من ٢٠ سنة " التفت الجندي ناحية الصوت فرأى جندياً يسير تجاهه جسداً بلا رأس " زاد قلبي رجفة من الخوف ، وزاد ثقل الحمل على جسمي ، وغاصت أقدامي أعمق في أحشاء الرمال .

أخذ عقلي يذهب كل مذهب فقد خشيت أن يكون السائق قد أنزلني في مكان بعيد جداً عن سريتي ، وماذا لو طلع عليَّ النهار

ولم أصل ؟ وأُكْتَب غياباً وأحوَّل إلى الكتيبة وادخل السجن، كما دخل خضر ، وأرى ما رآه فيه من أهوال ، ويعمل لي المساجين حفل استقبال كما عملوا له ، وماذا ؟ وماذا ؟ القلب يعتصره الخوف من المجهول ، والعقل يكاد ينفجر من كثرة الأسئلة ، وقسوة الاحتمالات ، هذا ما كنت أخشاه قد وقع ، فكثيراً ما فكَّرت وأنا ذاهب لإحضار التعيين من ك ١١٦ بعد العشاء ماذا لو تُهْت في هذه الصحراء وضللت الطريق ، وكانت الإجابة أقسى من أن أتخيلها ، وها قد رأيتها بعيني ، تعبت عيني من التحديق في الظلام بحثاً عن بصيص من نور وتعبت رقبتي من كثرة التلفت في كل الاتجاهات ، وتذكَّرت مصطفى صادق الرافعي وهو يصف حال طفلين تائهين " ينحدران في أمواج الليل ، وقد نزل بهما من الهم في البحث عن بيتهما ما ينزل مثله بمن تطوح به الأقدار إذا ركب البحر المظلم ليكشف عن أرض جديدة " أو بمن توح به الأقدار إذا سار في الصحراء المظلمة يبحث عن سريته المفقودة . أخذت أحدق في الجبال لعلِّي أستطيع تحديد مكاني فلم اهتدِ فالجبل كان كالمارد الذي سد الأفق ولا تكاد تعرف له ملامح إلا ملامح الخوف والذعر والفزع ، أخذت ابحث عن أي مَعْلَم على الأرض فلم أر إلا بحر الرمال وأشباح النباتات ، صرخت في البريَّة : يا رب .. يا رب .. ليس لي سواك وقد تقطَّعت بي

الأسباب ، يا رب كيف أدعوك وأنا عاص وكيف لا أدعوك وأنت كريم ، ولا أدري لماذا تذكَّرت النبي في غار حراء وقد نزل عليه جبريل أول مرة ، وسيدنا يونس في بطن الحوت فصرخت ﴿فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ وأخذت أكرر هاتفا ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ ولا أدري كم مرَّ على من وقت وأنا على هذه الحالة حتى رأيت ضوء مصباح كنور شمعة في سبيله للانطفاء واستجمعت ما تبقى عندي من قوة وأخذت أجري .. أجري نحو الضوء ، وأنا ما زلت أصرخ ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ كلما اقتربت من المصباح تتضح معالم المكان إنه يشبه الكتيبة ليته يكون ك ١١٦ أو ك١١٧ القريبتين من سريتي .. اقتربت .. اقتربت أكثر .. وأكثر ... "

– سامي .. سامي .. تعالى تصرَّف مع ابنك .

توقَّفت عن الكتابة وذهبت لأرى ابني فوجدته يلعب ولا يريد أن يعمل الواجب ، انفعلت وقمت بضربه ، وإذا بزوجتي العزيزة التي كانت تصرخ من ابني صارت تصرخ فيَّ : حرام عليك .. لماذا تضرب الولد ؟ هذا بدلاً من أن تجلس معه وتذاكر له تضربه ؟

وبعد الاعتذار لزوجتي ، ولابني ، بدأت أذاكر معه دروسه .. ما أقسى أن يكون كاتب مبدع يمتلك ذؤابة الفكر وناصية اللغة

والبلاغة ويريد أن يغيِّر العالم يضطر لتدريس مبادئ اللغة لطفل يملك عقل ذبابة مثل .. مثل .. مثل أبيه !

وبعد أن أطارت ذبابة العقل ذؤابة الفكر انتحرت الرغبة في عمل أي شيء آخر فنمت كمداً .

* * *

٢٢

أعتذر لك عزيزي القاري عن انقطاعي عن كتابة بقية قصة توهاني في الصحراء كان الله في عون أبطال القوات المسلحة الذين يواجهون الموت الحقيقي وهم يحاربون خفافيش الظلام، وبؤر الإرهاب المهم نعود إلى بقية القصة " اقتربت أكثر من مصدر الضوء حتى وصلت إلى بوابة كتيبة عسكرية ، وقبل أن أنطق وأسأل العسكري عن اسم كتيبته ، ومكان كتيبتي فوجئت به يقول : حمداً لله على السلامة يا سامي !!

وحضنني وقبّلني ، وجاء خدمة الحملة وحضنني وقبّلني وأنا غير مصدق .. معقول هذه سريتي .. لا أكاد أصدق " ضاقت حتى استحكمت ... " قابلت وجيهاً وتحدَّثتُ معه وعرفت منه أحوال السرية كما عرفت أن الساعة الحادية عشرة ، ودهش عندما سألته عن اسم الخدمة الثانية بوابة فقال لي وهو يضحك : أنسيت مصطفى أنور دفعتك ؟! .. فحكيت له ما حدث لي في رحلة الأهوال .

تحدثت مع وجيه حوالي ثلاثة أرباع ساعة ثم فرشت فرشتي ونمت ، وأنا غير مصدق أني وصلت ، وكل دقيقة أفرك يدي في وجهي لأتأكد أني وصلت سريتي فعلاً وأني لست أحلم ... " .

نعود عزيزي القارئ الآن لاستكمال القصة التي كتبتها عن حكاية محمود تربية .

" ١٢ / ٨ / ... وأنا أفكَّر في قصة محمود تربية تذكَّرت قصة حقيقية كتبها مصطفى أمين في عموده فكرة ، ملخصها أن شاباً كان يحب فتاة ، وكانت تبادله نفس الشعور ونظراً لعجزه عن التقدُّم لها لضيق ذات يده ، تزوَّجت بغيره ممن لا تحب ، ولم يطق الشاب البقاء في البلد فسافر إلى بلد عربية ، وأفنى نفسه في العمل حتى جمع مبلغاً كبيراً من المال ثم عاد إلى مصر ليستثمر أمواله ، بحث الرجل عن حبيبته القديمة حتى عرف مكانها فأرسل لها سكرتيرته فتعرَّفت عليها ، وعرفت عنها كل شيء ، عرفت أن زوجها قد مات ، وأن ابنها أصبح شاباً ، وحكت لها السكرتيرة عن أن رئيسها في العمل ما زال يحبها ويتمنَّى رؤيتها ، وأخذتْ له منها موعداً ، ورقم التليفون ، وذهب الرجل إلى الميعاد الذي كان نفس مكان لقائهما القديم ، وانتظر .. وانتظر ولم تأت ، وعاد حزيناً ، وعندما اتصل بها وردَّت عليه بادرها متسائلاً : لماذا لم تأت حسب الميعاد ؟! وكانت المفاجأة أن قالت له : لقد أتيت ووقفت أمامك ، لكنك لم تعرفني ؛ لذلك قرَّرت أن أترك لك صورتي القديمة .

وفي الخدمة النهارية كتبت قصة " فتاة مثلك " متأثراً بقصة محمود وما تخيلته بالأمس .

فتاة مثلك

- إيمان !! معقول .

- هشام !!

- أخيراً يا إيمان التقينا ،أخيراً أنا وأنت في مكان واحد،هذا حلم.

- كيف حالك يا هشام ؟

- تعالي .. تعالي نجلس في مكان لا يسمعنا فيه أحد ، تعالي .. طوفان الكلام كسر كل السدود ، يااه يا إيمان .. معقول أننا نسير سويّاً جنباً إلى جنب ، أراك ، تسمعيني .. آه .. تسمعيني .. تسمعيني بعدما قتلني تجاهلك .

- الحقيقة أني .

- أرجوك أنا أريد اليوم أن أتكلم ، وأتكلم ، وتسمعيني ؛ كانت أمنيتي أن أسمعكِ كلاما كثيرا قتله صمتي ، لم يكن ليسمعه غيرك ، أحلام ، أفكار ، كانت أمنية عمري أن تسمعيها ، أن تعيشيها معي ، أرجوك لا تضيعي عليّ هذه الفرصة ، فأنا لا أملك أن تتكرر ثانية .

جلسا ، أخذ ينظر إليها ، يتفحص كل شيء فيها .

– ما لك تنظر ليَّ هكذا ؟!

– أتدرين أني لأول مرة أراك من قرب ، المرة الأولى التي أرى لون عينيك ، أرى تفاصيل وجهك ؛ أحببتك من بعيد ، وعندما اقتربتُ منك ابتعدتِ ؛ فدعيني أراك من قرب ، دعيني أنظر إليك، دعيني أرتوي منك ؛ فأنا الظمآن الذي طال به الظمأ ، واستبد به العطش .. يحيرني سؤال أعيتني إجابته ، آه لو تدرين ماذا صنع بي .. لماذا لم تسمعيني من قبل ؟ لماذا حُلْتِ بيني وبين أن أحياك ؟ سؤال حيرتني إجابته سنين عدداً ، سؤال كاد يصيبني بالجنون ، تمنيت يوماً لو بعت عمري ؛ واشتريت إجابته، لماذا رغم حبك لي لم تسمعيني ؟

– الحقيقة أني ...

– أرجوك أنا لا أريد الإجابة الآن .

– أرجوك أعطني الفرصة للدفاع ...

– أنت لست مُتَّهمة ، وأنا لست قاضيّاً ، أنا عاشق قديم عندما رآك اليوم هاجت ذكرياته ، وبعثت الكلمات التي دُفِنَتْ في حلقه ، يا إيمان أنا لا ألومك على شيء إنما أحكي لك ما يدور بداخلي ،

ولا أستطيع أن أقوله لسواك ، ويكفيني أن تسمعيه ، فأنت الوحيدة التي أحببتها ، هل تتصوري هذا ؟!! رغم هذه السنين الطويلة لم أحب بعدك ، ليس لأني ما زلت أحبك ، وإنما لأن حبك كان نقطة ضعفي الوحيدة فقرَّرت بعد أن تخلَّصت منها ألا أعود لمثلها أبداً؛ تَحَكَّمْتُ في قلبي ، قسوت عليه ؛ حتى لا أموت مرتين ، رغم أني قابلت من الفتيات ، والنساء الكثير ، ومنهن من أحببنني ، لكني كنت دائماً أتذكَّر ما صنعتيه بي ؛ فأشمخ بأنفي، وأصعِّر خدِّي ، وأسير في طريقي تماماً كما كنت تفعلين معي !

– أنا .. أنا ...

– لا عليك .

– أرجوك اسمعني أرجوك ...

– قالوا عني : عدو النساء مع أني يوماً أحببت إحداهن حبّاً لم تره كل النساء ، قالوا عني : رجل بلا قلب ، وأنا الذي كنت أنتظرك ساعتين في الظهيرة في الحر الشديد ، وساعتين في المساء في البرد البليد ؛ لأراك لثوان معدودة من بعيد ، قالوا .. وقالوا .. وتمنوا أن يروكِ .. يرون الفتاة التي من الممكن أن أكون قد أحببتها يوماً أو الفتاة التي من الممكن أن أُحِبُها. أنا سعيد أن أقابلك اليوم بعد هذه السنين ، لقد ذكرتني بأيام الصبا، وأعدتني لأحلام الشباب ، ذكرتني بالبراءة ، والسذاجة قبل أن يمتلئ عقلي

بالأفكار ، وتكل قدمي من الأسفار .. كم كنت أحبك! .. كم كتبت فيك من الأشعار ، مازلت أحتفظ بالأوراق حتى الآن، وأعود لأقرأها من آنٍ لآن ، كم كنت أحبك ، وكم أتمنى أن أتزوج فتاة مثلك .. فتاة مثلك ، وليست أنت ! فتاة مثلك لأني أحبك ، وليست أنت ؛ لأني أرى فيك ضعفي الذي لم أعرفه إلا عندما أحببتك ، كم أتمنى أن أتزوج فتاة مثلك لها عينان مثل عينيك ، لكنهما ليستا عينيك ، عينان مملوءتان بالحب ، والشوق ، والوفاء، وليستا مملوءتين بالهجر ، والصدّ ، والجفاء ، كم أتمنَّى أن أتزوَّج فتاة مثلك لها ثغر صغير كثغرك ، لكن ليس ثغرك ، ثغر أسمع منه كلمة أحبك التي لم أسمعها منك ، فتاة مثلك لها أذنان جميلتان كأذنيك لكنهما ليستا أذنيك ، أذنان تصغيان لكلامي ، وأحلامي ، وتطربهما أشعاري ، وليستا أذنيك اللتين لم تصغيا لكلمة واحدة من كلامي ، فتاة مثلك أجوب بها الأحياء العتيقة في ليالي رمضان ، وأجلس معها تحت المظلة في الصيف نلاحظ الأطفال تلعب على الشاطئ ، وأحكي لها عن طفولتي وصبايا حتى الغروب ، نسمع فيروز تشدو " أعطني الناي وغنِّي " .. كنت أحلم أن تشاركيني هذه الأحلام لكنك هجرت .. حاولت أن أعوض فشلي معك بالنجاح في عملي ، ونجحت ، ونجحت ، كان شبح الفشل يلهب ظهري ، يذكرني بالشمس التي أحرقت

وجهي وأنا أنتظر مرروك دون أن تدري ، يذكرني بالدموع التي روَّت وسائدي ...

أنا أعترف لك الآن بسر لا يعلمه أحد وهو أنك السبب في نجاحي، والسبب في عدم استمتاعي به . يا إيمان أمنيتي أن أتزوَّج فتاة مثلك لم تر ضعفي الذي لم يره غيرك ، فتاة مثلك تجعلني أنساك ، فتاة لا تغضب عندما أحدثها عنك ، ولا تتكبَّر عندما أبكي أمامها .

قد يبدو كلامي غريباً متناقضاً ، هُراء ، لكنه هو الحقيقة التي أحسها ، والتي أعيش على أمل أن تتحقَّق يوما ما .

***

" ٨/١٤ / ... بعدما انتهيت من كتابة قصة " فتاة مثلك " طرت بها إلى محمود الذي كان جالساً مع بعض الزملاء ، أشرت له من بعيد فجاء وأخبرته بأني كتبت قصته ، وكاد يطير من الفرحة جلسنا في ف١ التي لم يكن فيها أحد سوى وجيه يجلس وحيداً ومنهمك في قراءة كتاب .

قرأت القصة لمحمود تربية الذي سعد جداً وقبَّلني بسعادة غامرة وقال : هذا ما أريد أن قوله بالضبط .. أنت كاتب كبير ،

وسيكون لك مستقبل في عالم القصة .. كيف عرفت حقيقة مشاعري بهذه الدقَّة ؟!! وطلب مني إعادة قراءتها مرة ثانية ، وبعد أن قرأت القصة مرة ثانية قال : رغم أن القصة لا تتضمن كثيراً من الأحداث الحقيقة لكنها تعبِّر عن حقيقة شعوري تجاه حنان الآن .

وطلب مني أن أكتب له نسخة من القصة ، وكتابة إهداء .

في نفس اليوم ، تناولت العشاء مع الباجوري ، وتحدثنا في أمور السرية ثم سألني عن آخر أعمالي فقرأت عليه قصة " فتاة مثلك " قال لي الباجوري : إن في هذه القصة ٩٠% منك أليس كذلك؟ قلت : إنَّ في كلِّ قصة جزءاً مني لكن بنسب متفاوتة .

– أنا لا أعتقد أنك لم تحب من قبل لأن ما قرأته لك يستحيل أن يكون صادراً من واحد لم يحب فأنت في قصصك تقول حوارات بالفعل حدثت وتقول كلاماً على لسان البطلات ، تقوله البنات بالفعل .

أكدَّت له إن قصة " فتاة مثلك " ليست قصتي ، ولم أقل له بالطبع إنها قصة محمود تربية فهذه أمانة ، وبدلاً من أن يحاصرني بأسئلته ليعرف صاحب القصة الحقيقي ؛ فالباجوري فضولي . قلت له لأصرفه عن صاحب القصة : أريد أن أسألك عدة أسئلة عني ستعرف منها ما تريد : هل أحببتُ أنا يوماً ؟ هل

مازلتُ أحبها ؟ هل افترقنا ؟ ومن السبب ؟ هل الحب كان من طرف واحد ؟ وما هي أسباب الافتراق ؟

قال الباجوري : أنتَ أحببتَ من فترة حوالي أربع سنوات ، واختلفتما إما لظروف خارجية أو أنها هي التي تركتك ، وأن الحوار الدائر في قصة فتاة مثلك حوار لم يتم ، وتتمنَّى لو اجتمعت بها لتسمعها هذا الكلام ، وأحسست أن الباجوري يكاد يفضحني فغيَّرت الموضوع ، لأني لأنوي البوح بهذا السر أبداً .

... حدَّثني الباجوري عن مغامرة عاطفية جديدة له مع فتاة من طبقة اجتماعية راقية ، وعلى درجة كبيرة من الغرور ، ووالدها مهندس، وكان الباجوري يعرفها من قبل ، ولكنه لم يسبق له الحديث معها في مواضيع خاصة ، وجدها تسير بمفردها فتقدَّم منها وسلَّم عليها، وتكلَّم معها كلاماً عامّاً ثم قال لها : أنا أحبك ، ما رأيك ؟ فوجئتْ بالسؤال ، وقالت له : أنا سمعت كثيراً عن علاقاتك .

فقال لها : ولكني أحبك .

ولم يعرف شعورها نحوه في هذا اللقاء ، وقابلها مرة أخرى وكان معها أخوها الصغير وتكَّلم الباجوري معها ، وعبَّر لها عن حبه فقالت له : وما آخرة هذا الحب ؟

– نحن في مرحلة التعارف والتقرُّب من بعض ، وإذا انتهينا إلى اتفاق سنتزوج وإلا كل واحد يذهب لحاله .

– يعني تريد أن تتسلَّى ؟

– لا .. أنا مسافر وأريد أن أسمع منك كلمة حلوة تطمئنني .

قالت له وهي تبتسم ابتسامة صغيرة : اطمئن ، وإن شاء الله عندما تعود في الإجازة القادمة تسمع مني كلاماً حلواً كثيراً .

أثار فيَّ كلام الباجوري الرغبة في أخذ رأيه في قصة محمود تربية مع حبيبته التي عرضها عليَّ ، ولكن بطريقة غير مباشرة فقلت له : أنا أريد أن أسالك بعض الأسئلة بحكم أنك خبير في الحب وفي البنات .

– هل حدث أن كلَّمت واحدة ولم ترد عليك ؟

– حدث لكن قليل جداً .

– حدث أن واحدة قالت لك : كلِّم أبي .

– هذا معناه أن البنت تعزِّز نفسها.

– إذا قالت لك ذلك معنى هذا أنها تحبك أم .. لا ؟

– ١٠٠ % أو ١٠٠٠% إنها تحبك.

– افترض أن واحدة تبادلك النظرات من على بعد ، وعندما تحاول أن تكلمها تتركك وتمشي ولا ترد عليك حتى صباح الخير.

وتعجب الباجوري جداً من هذا التناقض وقال : هذا غير معقول، كيف تفعل هذا ؟!

قلت له : أنا رأيتها بنفسي وهي تنظر إليه وقلت له ضع في بطنك بطيخة صيفي . وسكت الباجوري وطال سكوته ، ولما وجدته حائراً من هذا اللغز قلت له : هي فعلت معه هذا بعدما قالت له في أول مرة كلمها فيها كلِّم أبي فقال على الفور : لماذا لم تقل هذا من البداية هذا معناه أنها تحبه ١٠٠ % .

ذهب الباجوري لينام وظللت أنا جالساً في مكاني في ظهر ف٢ وكان القمر جميلاً جداً أمامي والجو رائع .. أثارت كلمات الباجوري فيَّ انتعاشاً غريباً وتحرَّك القلب الساكن وتدفَّق الشوق المتصلِّب ، تذكَّرت قصتي مع سلوى وكنت قد سألت الباجوري في هذه الجلسة الشاعرية هل من الجائز أنك تذهب إلى أبي البنت التي تحبها وتطلبها منه بصفة غير رسمية وتعرض عليه أنه إذا تيسَّرت الأمور سوف تخطبها فقال : نعم .. ممكن ويتوقَّف هذا على السبب الذي تقدمه لأبويها ، والتطبيق العملي أن الباجوري حدث له هذا مع مرفت .

إلى اللقاء لأني أنا الآن أفكر في موضوع ماذا لو كانت سلوى لم تخْطب حتى الآن ووجدتها تسير هل أكلمها .. هل أوافق على خطبتها هل ... هل ... " .

بعد أن كتبت هذا استعدت ذكرياتي مع سلوى ، وسألت نفسي ترى أين هي الآن ؟ وهل ما زلت ....

- كم الساعة الآن ؟

***

٢٣

بالأمس حمدت الله إن زوجتي لم تقرأ شيئاً مما كتبته ولم أندم على أني أغلقت الجهاز فور سماع صوتها ولم أحفظ ما كتبته وأسمعك عزيزي القارئ تقول : ولكن زوجتك ستقرأ هذا الكتاب عندما ينشر وستعرف ماذا كتبت فيه وساعتها ...

وأقول لك عزيزي القارئ : إن نشرت هذه الرواية مثل الرواية الأولى فإن زوجتي لن يهمها ماذا كتبت فيها إنما الذي يهمها ماذا أخذت عليها ، فالحمد لله أن زوجتي لا تعترف بي كاتباً ولا تقرأ لي شيئاً ، ولم تعد تهتم بما أكتب إلا إذا أثَّر على واجباتي المنزلية ، لذا فأنا أكتب وأنا مطمئن أني لن أقع تحت طائلة القانون ، وإذا حدث المحظور فيمكن ساعتها التذرُّع بأن هذه رواية وليس كل ما فيها حقائق إنما هي من وحي الخيال ، والله خير حافظاً من قبل ومن بعد .

نعود إلى ذكريات سيناء بعد أن طمأنتك عزيز القارئ على حالي:

" ١٥ / ٨/ ... كان عندي خدمة أولى بوابة ، وقبل الغروب أخذ عبد الجيِّد يعزف على مزماره الخشبي بجوار البوابة ، ثم

فوجئنا بصوت ناي آخر آتياً من بعيد يرد على عبد الجيد نغماً بنغم دقَّقت النظر في مصدر النغم فوجدت فتاة بدوية عندها نحو ١٤ سنة ترتدي جلباباً برتقالياً هي التي تزمِّر ، وبدأ حوار عبد الجيِّد مع هذه الفتاة بالنغم دون كلام ، يعزف عبد الجيد لنحو دقيقة أو اثنتين ، ثم ترد هذه الفتاة التي جلست على مسافة عشرين متراً منه ، ظلَّ هذا المشهد الساحر الذي استمتعت به أكثر من ساعة ، حوار بين عبد الجيِّد والفتاة بالأنغام ، ثم أشار عبد الجيِّد للفتاة أن تقترب ، لكنها أرسلت له والدتها التي قالت له : إنها "خزيانة منك" كانت الفتاة ترعى الغنم مع أمها وتتحاور بالنغم مع عبد الجيِّد ، وشعرت بسعادة غامرة ، وأنا أرى هذا المشهد الجميل ، وتمنيت لو كتبت قصة عن هذا المشهد الرومانسي جداً الذي هاجت له مشاعري ، لكن للأسف لم أكتب عنه شيئاً فقد كنت في الخدمة ، وفي آخر الخدمة رجع النقيب هشام والضابط مدحت ومعهما ضابطان آخران ، وثبتهم تثبيتة قوية جداً ، وأعجب النقيب بها وسألني عن اسمي – جندي مجند سامي أبو زيد يا فندم ، وأثنى الضابط مدحت عليَّ أمام النقيب وقال له : سامي أحسن عسكري في السرية هو ووجيه فهما مثال الانضباط والكفاءة فقال النقيب لي : بلِّغ الأفراد إن لك يوماً إجازة فوق الدفعة . وفرحت جداً جداً ليس باليوم الزيادة بل لأن مدحت

قرنني بوجيه الجندي المثالي الذي أتمنَّى أن يفتح لي قلبه وأعرف الكثير عن هذه الشخصية الفريدة . وبعد انتهاء الخدمة حاولت كتابة قصة عن عبد الجيِّد وعازفة الناي ، ولكن كانت اللحظة قد أفلتت من يدي ، ولم أستطع استعادتها .

١٦/٨/ ... وقفنا طابور الخدمة وبعد أن أعدَّ الصول ليثي الطابور ذهب للضابط مدحت ليعطيه التمام ويأخذ منه كلمة سر الليل حيث كان مدحت أقدم رتبة في السريَّة بعد نزول النقيب والضابط محمد أجازة ؛ فقال له الضابط مدحت على مسمع منَّا نحن أفراد الخدمة : " أعطهم أنت كلمة السر واصرفهم " ، وكنت خدمة ثانية حملة ، وكان وجيه قريباً مني فقد كان خدمة ضلع أو سلك كما نسميها ، وقفت الخدمة وكان الجو جميلاً جداً ، والقمر ساطعاً ، وجاء صوت فيروز في أغنيتها " سكن الليل " لتكتمل متعة الحواس ، ونحو الساعة الثانية عشرة والربع تسلَّل الضابط مدحت نحو الضلع الذي يحرسه وجيه ، ولم يكن الضابط يعرف أن وجيهاً هو الواقف عليه خدمة ، وإذا بصوت كالرعد يخرص فيروز ويوقظ سكون الليل : " اثبت محلك .. اثبت محلك " فزع الضابط مدحت ، ثم تماسك وقال بلهجة وُديَّة : تمام يا عسكري وجيه . سأله وجيه بكل حسم : " كلمة السر ؟ " صدم الضابط بالسؤال وأحس أنه وقع في مأزق شديد فوجيه لا يمزح .. قال في

لهجة استعطاف : " خلاص يا بني " وجاء صوت وجيه كطلقة الرصاص : " كلمة السر ؟ " فقال الضابط مدحت بلهجة اليائس : " ليس هناك كلمة سر " فانهالت الأوامر على الضابط مدحت : " اثبت محلك .. ارفع يديك لأعلى .. ارفع " – " ارفع يديك .. ارفع " رفع الضابط مدحت يديه وقد استولى عليه الرعب والفزع

قال وجيه للضابط مدحت : " للخلف دُر .. معتدل مارش .. "

– " إلى أين ستأخذني ؟ " .

– " إلى مساعد ضابط النابتجي " .

– " أنا الضابط مدحت "

– " نفذ الأمر .. وارفع يديك عالياً " .

استجمع الضابط مدحت ما تبقى لديه من قوة وقال : " أنا سأعطيك جِزا .. سأعطيك جزا " .

وكأن وجيهاً لم يسمع شيئاً : " معتدل مارش .. قف .. معتدل مارش " .

عندما مرَّ عليَّ الضابط مدحت وخلفه وجيه شاهراً البندقية قال : " أنا قائدك الضابط مدحت .. ألا تعرفني يا سامي ؟

قلت له وأنا أرتجف : " أنا أعرفك يا فندم لكن ماذا أعمل ؟ "

وعند هذا الحد قال وجيه للضابط مدحت : " يكفي هذا " ، وابتلع الضابط مدحت ريقه ليرطب حلقه الذي جفَّ وكان في قمة الرعب

والخوف والذهول من هول المفاجأة فقد شدَّ وجيه عليه أجزاء البندقية ليجبره على تنفيذ الأوامر فأخذ وجيه يداعب الضابط مدحت ليطمئنه ويهدئ من روعه وقال له وهو يبتسم : " يا فندم لا يصح أن تمرَّ على الخدمات وأنت لا تعرف كلمة سر الليل " قال الضابط مدحت : " لن أمرَّ مرة ثانية اليوم " فقال له وجيه والضابط مدحت يهم بالانصراف : " لا تغضب مني يا فندم .
قال الضابط مدحت وقد استيقظ من الكابوس : " لا .. أبداً .. أبداً .. ما فعلته هو الصح .. وسيادة النقيب ألم يعط سامي يوماً فوق الدفعة عندما ثبته بالأمس ؟!

ثم تكلَّم وجيه مع الضابط مدحت بعض الوقت ثم انصرف ، وكانت كلمة سر الليل التي أعطاها لنا الصول ليثي " رصيف نمرة ٥ " ، وسامح الله وجيهاً فلم استمع إلى الراديو ولم أسترح فقد خِفت أن يعود الضابط مدحت بعد ذلك لينتقم من أي متكاسل في الخدمة ليستردَّ هيبته التي اهتزت بعد موقف وجيه لكن الضابط مدحت لم يمر مرة ثانية واكتفى فقط الساعة الواحدة والربع بأن نادى على الخدمات فرد خدمة البوابة بوابة تمام وكذلك السلاح ووجيه قال بكل قوة وحماس أفندم خدمة ضلع تمام ورددت أنا بقوة أيضاً أفندم خدمة حملة تمام ، وانتهت الخدمة وذهبنا للنوم ولكن

حكاية وجيه مع الضابط مدحت لم تتم ، بل أصبحت حديث السريَّة لأكثر من شهر ، وما حسدت أو بمعنى صحيح وما غبطت وجيهاً على شيء بقدر غبطتي له على هذا الموقف .

نمت نوماً متقطِّعاً ثم استيقظت ونظرت في الساعة فوجدتها الثامنة إلا الثلث فاجأتني الصدمة ، لبست البيادة بسرعة وجريت وأدركت الطابور والحمد لله على أنه لم يوقظني أحد ؛ فإن أيقظك أحد لتأخرك عن خدمة أو طابور أو جمع فهذه إحدى مآسي الخدمة العسكرية حيث تكون في أحلى نومة وتأكل أرزاً مع الملائكة فتجد من ينزع من فوقك غطاءك مرة واحدة ويهزك بعنف هزة السيارة التي اصطدمت بأخرى مسرعة ولو كان الصول حسن فيركلك بحذائه الميري ركلة كفيلة بأن تجعل الصداع ملازماً لك طوال اليوم .

لكن الحمد لله استيقظت بمفردي في الوقت المناسب وبعد الطابور عملت مع كامل في عجن الطَّفْلة وكان يعمل معنا وجيه، وعندما أتى ميعاد خدمته النهارية ذهب ليستأذن من الضابط مدحت فقال له الضابط مدحت باسماً : " كنتَ تريد أن تدورني لمساعد ضابط نباتجي أمس .. واثبت محلك ، وللخلف در ، وكلمة السر .. أنا سأشبعكم كلمة سر الليل " وضحك وجيه ثم انصرف إلى خدمته ... " .

ويبدو أن الضابط مدحت أضمر الموضوع في نفسه وبدأ يتربص بوجيه أي مخالفة ، وفي اليوم التالي مباشرة واتت الضابط مدحت الفرصة ليأخذ تأثره من وجيه ويسترد هيبته في السرية .

" ١٧/ ٨ كنَّا نجلس في ظهر ف٣ نتسامر أنا وعبد الرحمن وسمير ، ووجيه وكان عبد الرحمن يقرأ علينا من كتاب لإمام المسجد الأقصى ، ثم جاء على عبد ربه ، وعرض علينا أن نصعد الجبل ، ووافق سمير على الفور ، ثم عبد الرحمن ، ووافقت ، ووافق وجيه لأنه يريد أن يطَّلع على شيء فوق الجبل ، خرجنا من السرية دون أن نستأذن أحداً من الضباط أو صف الضباط ، وبدأنا نصعد الجبل ، ورأينا المنشئات الهندسية الحصينة ، وكان المنظر جميلاً جداً من أعلى الجبل ، وظهرت السرية مثل منضدة البينج بونج ، وكذلك ك ١١٧ ، ك ١١٦ ، ك ١١٨ ، واللواء ١١٨ كل شيء يبدو بوضوح بشكل مصغَّر ، وتمنيت لو التقطت صورة للسرية من فوق الجبل ، حتماً ستكون صورة رائعة ، المهم طفنا بالمكان ، وأمضينا وقتاً جميلاً ، ذكَّرني هذا المكان بتبَّة الجبل التي بنيت عليها مقبرة أغاخان في أسوان ، مع فارق أن تبَّة قبر أغا خان كانت تطل على النيل العظيم وعلى الخضرة الوارفة، أما هذه التبَّة فلا يبدو تحتها إلا الصحراء والمنشآت العسكرية البيضاء ، وعدنا بعد هذه الجولة ففوجئنا بأن

الضابط مدحت جمع السريَّة ، وتوعَّدنا أنه سيعاقبنا ، وبدأنا نقلق، ولكن وجيهاً طمأننا؛ فنحن لم نرتكب جُرماً ، فما فعلناه يَعَدُّ أمراً عادياً ، قام به من كانوا قبلنا كثيراً ، المهم اتفقنا على أن يتكلَّم وجيه نيابة عنَّا ليس لأنه أفصحنا لساناً ، وأرجحنا عقلاً فحسب بل لأنه أقربنا إلى قلب الضابط مدحت بغضِّ النظر عما حدث بالأمس بينهما .

وصلنا السرية قال لنا : حمدي خدمة الضلع إن الضابط مدحت جمع السرية ، وكتب أسماءنا ، وخصم من كل واحد منكم ٤ أيام من إجازته ، وبدأت أقلق فالخصم من أيام الإجازة من أسوأ العقوبات ، وتوقَّعت أنه سيلغي لي اليوم الزيادة الذي حصلت عليه نتيجة تثبتي للنقيب بقوة ، وذهبنا إلى الضابط مدحت باللبس الرياضي الذي كنَّا نلبسه يتقدَّمنا وجيه الذي قال عنه الضابط مدحت أمام السرية ونحن فوق الجبل عندما علم أنه معنا إن وجيهاً سيقول أنا ذاهب للاستطلاع وسيحاول إقناعي بهذا فهو فيلسوف هكذا سمعنا من أكثر من واحد مع اختلاف بسيط بين الروايات ، المهم دخلنا على الضابط مدحت لكنه صَرَفَنا بغضب وقال : إنكم مُدوَّرون مكتب الساعة السابعة والنصف ، ورغم ثقتنا أن الضابط مدحت طيب ولا يحب أن يؤذي أحداً إلا أن الخوف بدأ يساورنا ، وجاء الصول عبده وكان في مأمورية في السويس

وهو أقدم صف ضابط ، وخِفْنا أن يصعِّد الأمور كعادته ، ذهب وجيه إليه وأخبره بما حدث وطلب منه أن يدورنا في السابعة والنصف ، دخلنا على الضابط مدحت في المكتب : وجيه ، وأنا، وكامل البنا ، وعلى صاروخ ، وعبد الرحمن ، وسمير بهذا الترتيب .

سأل الضابط مدحت كاملاً وكنَّا نتمنَّا أن يبدأ بسؤال وجيه أو سؤالي حتى يؤيد الباقي هذا الرأي ولا يحدث تضارب في الآراء ولكنه بدأ بكامل : لماذا خرجت من السرية وصعدت الجبل دون إذن ؟ قال كامل : أنا كنتُ متضايقاً ووجدتهم ذاهبين فذهبت معهم ، ونظر إليَّ وقال : ليس عيباً أن تكونوا شعراء وتريدون أن تصعدوا الجبل وتتفرجوا على المناظر الطبيعية لكن كان يجب عليكم أن تستأذنوا أولاً . فقلت : بالنسبة لموضوع صعود الجبل ، وهنا رنَّ جرس التليفون فتوقَّفت عن الكلام حتى ينهي الضابط مدحت المكالمة ، ثم قلت : صعود الجبل لم يكن محتاجاً للاستئذان حتى نستأذن له ، ولقد كان مَنْ قبلنا ... قاطعني الضابط مدحت قائلاً : الأمور أصبحت سائبة ، إذا كان النقيب كان يسمح لكم بهذا ، فأنا قائد السرية الآن ، ولا أسمح ، ثم وجَّه السؤال لعلي صاروخ ولم ينتظر أن يسمع بقية كلامي خوفاً من

أن يقتنع برأيي وفي النهاية قال : أنا اكتفيت في هذه المرة أن أعطي كل واحد منكم خمس خَدَمَات زيادة ، وكتب أسماءنا ، وصرفنا .

وعلمنا أن الإمباشي على منصور هو الذي وَشَى بنا عند الضابط مدحت .

وفي طابور الصباح عمل الضابط مدحت اختباراً لأفراد الاستطلاع فسأل عبد الرحمن عن القرائن الدالة على وجود دبابة وأجابه عبد الرحمن إجابة صحيحة ، وسأل أشرف عن المسافة والزاوية الأفقية فأجابه ، وسأل وجيهاً : كيف تختار مركز ملاحظة ؟ وأجابه إجابة وافية قال في نهايتها : وبالنسبة لهذه المنطقة فإن أفضل مركز استطلاع هو ، وأشار إلى الجبل الذي صعدنا إليه بالأمس فقال الضابط مدحت بحسم : عسكري وجيه بالأمر عليك أن تأخذ أفراد الاستطلاع اليوم وتصعدوا الجبل كما فعلتم بالأمس وابتسم وجيه لأول مرة في طابور الجمع .

ثم طلب الضابط مدحت من وجيه أن يجهِّز مركز ملاحظة ، ومربض نيران وكيفيَّة التصدِّي لكتيبة دبابات معادية قادمة من الشرق ، ووزعنا وجيه فهو الحكمدار ، وبدأ يعطي الأوامر : الزاوية ٢ فقط ، وبُعْد الهدف من مركز الملاحظة ٢ ك ، وبعد

مركز الملاحظة عن مربض النيران ١ ك ، والهدف من النقطة الإشارية ٤١ ، وهي تبَّة صفراء بجوار ك ١١٨ عند الساعة ٣ ، وحدَّد مركز الملاحظة عند العربة الـ يونيمك ، ومربض النيران عند الملعب القديم ، وبدأ وجيه في إرسال الإشارة للضابط مدحت: ألو .. الو .. هل تسمعني ؟ الضابط مدحت : أسمعك بوضوح .. تكلَّم . وجيه : يوجد عدد ١١ دبابة معادية عند الساعة ٣ لأن النقطة الإشارية تميز بالنظر بعض الوقت قال الضابط مدحت : تميز . قال وجيه : الدبابة على شكل مثلث تتقدمها دبابة القائد .. عندما تكون جاهزاً للاشتباك اشتبك معها . بعد دقيقة قال وجيه : الدبابات أصبحت عند الساعة ٤ ، والمسافة من مربض النيران أصبحت ٢.٥ ك .. النيران تسقط خلف الدبابة بمائة متر .. عدِّل من الضرب .. أصبنا عدد ٢ دبابة بعدد ٢ صاروخ .

وكنت أنا حكمدار الطقم (طقم الصواريخ) ، وكان الضابط مدحت هو الذي يستقبل الإشارة بدلاً من عبده حامد الذي كان في أجازة . قمنا بكل هذا في جدٍّ ، مما أثار دهشة السرية ، وحيونا على هذا البيان ، وتلقيت أنا ووجيه التحية الأكبر فقد كان وجيه حكمدار الاستطلاع ، وأنا حكمدار الطقم ، وبقية الأفراد ينفذون الأوامر التي نصدرها لهم بما فيهم الضابط مدحت نفسه ،

وشعرت بالفخر والزهو وأحسست أن لوجودي في الجيش معنى ، وأن ما نتعلمه ليس عبثاً ، إنما جد لا هزل فيه ، وأننا على أتم الاستعداد في أي لحظة للقيام بالأدوار المطلوبة منا على خير وجه ، وأن التدريبات التي تلقيناها في مركز التدريب أو هنا وتعبنا فيه قد استوعبناها تماماً .

انتهى البيان وشكَرَنا الضابط مدحت وصافح كل من اشترك فيه، ورَبَتَ على كتفي وعلى كتف وجيه وقال : أحسنتم يا وحوش. ثم صرفنا .

جلسنا في المطبخ وشعرت بالجوع ، ولم نطبخ شيئاً في هذا اليوم لم يكن عدنا وقت ، وجاء التعيين أخيراً : أرز وباذنجان أكلت نصف بطن ، وحلَّيت بحبة جوافة صغيرة ، حاولت أن أنام، ولم أستطع الساعة ٥.١٦ جمعنا طابور خدمة ، وكنت خدمة ثالثة حملة ، بعد الطابور حاولت النوم دون جدوى قمت توضأت وصليت المغرب ، وجاء العَشاء تعشيت باذنجان وبيض ولحم أكلت ثلاثة أرباع بطن وشربت شاياً وطلعت على الخدمة ونمت في العربة الأولى من عربات الحملة بعيداً عن الضوضاء أغمضت عيني الساعة التاسعة إلا عشر دقائق وكان الجو جميلاً يغري بالسهر ، وكان القمر جميلاً ساطعاً يغري بالشعر لكن لابد

أن أنام ، حتى لا أنام في الخدمة نمت حوالي ثلاث ساعات استلمت الخدمة الساعة الثانية إلا عشر دقائق ، شعرت بالجوع الشديد ذهبت إلى الكنتين لإحضار ٣ قطع باسبوسة لأني كنت جائعاً جداً فوجدت الكانتين مغلق ، ذهبت إلى المطبخ لأحضر أي رغيف جراية أم أجد غير بعض كسر الخبز الناشف وسمير يأكل بعضها أخذت كسرتين منها واحدة تمثل ١١ على ٢٠ من الرغيف، والأخرى تمثل ١ على ٢٠٠ منه ، أخذت أقرقش في الكسرتين ، تذكَّرت حال المساكين وأشفقت عليهم ، فما أصعب ألا تجد ما تأكله .

كان الجو جميلاً والقمر ساطعاً فالليلة ليلة ١٣ هجريا الساعة ٤.١٠ فجراً بدأت أفكر في موضوع مهم وهو : لمن أكتب إهداء لأول مجموعة قصصية أنشرها إن شاء الله ، وفكَّرت أن أهديها لأمي ؛ فأنا أحبها حقاً ، لكن عدت وفكَّرت في أن أهدي هذه القصص لمن ساهم فيها وهم من استوحيت قصصي من حكاياتهم: الباجوري ، ونور ، وأسامة ، ومحمود ، وراغب ، وسمير ، وأحمد زهران ، طه أبو سريع وغيرهم ، ليتني أضيف إلى هذه الأسماء اسم وجيه ويحكي لي قصة حياته وسبب إتقانه لكلِّ عمل يعمله فبقدر حبي له أحسده فهو ...

ثم فكرت أن يكون الإهداء عامّاً لكلِّ زملائي في الجيش وللأيام التي أمضيتها معهم أيام العمل والتدريب من الصباح حتى العصر، والسمر أو الخدمة ليلاً .

فكَّرت أن أهدي كل قصة إلى صاحبها ، أمضيت بقية الخدمة حتى السادسة صباحاً في التفكير في هذا الموضوع ، ثم أيقظت كامل البنا وعلي صاروخ لأنهما سينزلان في الجهاز ، وبعد ذلك جمعت فرشتي ، ونظفت سلاحي ، وفوجئت أن سلاح جمال مغطَّى بالتراب وتضايقت جداً ، وصرخت فيه ما هذا الإهمال ، وكدت أن أذهب إلى الضابط مدحت وأريه سلاح جمال ؛ فماسورة البندقية محشوة بالرمال ، وإبرة ضرب النار مغطاة بالرمال وكذلك الناشنكاه الأمامي والخلفي كل السلاح .. كل السلاح أمرته أن ينظفه فأنا أقدم منه وهو عسكري مستجد ، بعد ذلك أيقظت حسام ليستلم الخدمة مني .

أسمعك الآن عزيزي القارئ تسألني عن بقية قصة خضر اللص الظريف وحكاية وجيه وبقية الحكايات التي وعدت بأن أحكيها في هذا الكتاب ، وأوشك الكتاب على الانتهاء دون أن أذكرها .

وأنا أكرر الاعتذار ، وأبشرك عزيزي القارئ أنني وجدت الآن بقية قصة خضر :

" ٢٠/ ٨/ ... ذهبت إلى نور صديقي في الجيش الذي أنهى الخدمة العسكرية منذ أكثر من شهرين نزلت العباسية مررت بمسجد النور ، سألت أحد الطلاب عن كشك عمي فهمي فأشار إلى داخل كلية طب عين شمس ، دخلت الكلية التي كانت مزدحمة فالنتائج على الأبواب ، والكل جاء يسأل عنها ، كان منظر الكلية جميلاً ، ومنظر الطلاب والطالبات جعلني أحسدهم ، وتمنيت لو كنت في كلية الطب ، وهذا الحسد لطلاب الطب أو للأطباء حسد قديم ومنشؤه نظرة الناس للأطباء فهم الوحيدون الذين يلقَّبون بلقب " دكتور " مع أنه لا يستحق لقب دكتور إلا من حصل على الدكتوراه ، وليس بكالوريوس ، أخذت أتلفت يمنة ويسرة أبحث عن الكشك الذي اكتشفت انه خارج الكلية ، ووجدت رجلاً عجوزاً نحيفاً قد ازدحم عليه الطلبة يشربون المثلجات فدرجة الحرارة في هذا اليوم كان ٣٩ درجة ، وامرأة أقرب إلى البدانة كانت تجلس في الكشك .

- هل أنت عمي فهمي .
- نعم .. يا ابني .
- أنا سامي صاحب نور الذي كلَّمك في التليفون .
- أهلاً وسهلاً .

وعلى الفور فتح لي زجاجة كولا مثلَّجة ، وكان الجو حاراً جداً ، وكنت عطشان جداً فجاءت في وقتها .

سألته عن نور .

– عاد إلي البيت ليتغدَّى .

كان الرجل مشغولاً بسبب كثرة المتزاحمين عليه فموقع الكشك يغري كل الطلاب وغيرهم بشرب المثلجات . انتظرت حوالي نصف ساعة لعل نور يأتي حسب الميعاد .

قلت لعمي فهمي : قل لنور إن سامي أبو زيد زميله في الجيش سأل عنه ، وإن شاء الله سوف أزوره في الإجازة القادمة .

عبرت كلية الطب مرة ثانية ، وشعرت بالعطش ووجدت زيراً صغيراً وأمامه عدة قُلل فشربت منه ..." .

وفي الإجازة التالية وفيت بوعدي وذهبت لنور .

" ١٧/ ٩ / ... ركبت الأتوبيس ، وذهبت إلى العباسية لأقابل نور ، وأشتري " بَارِيه " للصول الليثي ، ذهبت إلى كشك عمي فهمي ، ولم أجد نوراً حيث أخبرني أبوه أنه تزوَّج ، ولم يأت إلى الكشك من يومها ، شكرت عم فهمي ، وأثناء عودتي عبر كلية طب عين شمس رأيت نوراً .. نور بشحمه ولحمه تعانقنا عناقاً حاراً جداً جداً ، ووقفنا نتكلَّم فأخبرني أنه علم أني سألت عنه ،

وأنه كان يتمنَّى لو كان يعرف رقم تليفوني ليتصل بي ، ويحكى لي عن شيء خطير جداً ، وهو أن خضر قد اغتصب واحدة هو واثنان آخران ، وأدلت الفتاة بأوصافهم وقبض عليهم . وتعجَّبت من هذا الكلام وقلت له : ربما يكون شخص آخر غير خضر الذي نعرفه .

فقال : هو خضر .... وذكر لي اسمه ثلاثياً ، ومحل سكنه وعمل والده .

وسألته : كيف عرفت هذا الموضوع ؟

فقال : عندما كنت في رأس البر أقضي شهر العسل قرأت في إحدى الجرائد هذه الحادثة : فتاة كانت تسير بصحبة صديق لها فقام ثلاثة بضرب الولد واختطفوا الفتاة العذراء ، وتناوبوا الاعتداء عليها طول الليل ، وفي الصباح تركوها في حالة إعياء، وتوجَّهت الفتاة إلى قسم الشرطة وأدلت بأوصاف الجناة ، وتمكَّنت الشرطة من الوصول إليهم وتمَّ القبض عليهم ، وذكرت الجريدة أسماء الجناة الثلاثية ومحل سكنهم .

ثم حدَّثني نور عن زواجه فقال : أنا كنت قد أعددت الشقة وجهَّزتها قبل دخولي الجيش ، وكان معي بعض المال استطعت أن أتزوج به ، وعشت بعد الزواج من الأموال التي جمعناها من "النُّقطة" .

– وماذا تعمل الآن ؟

– لا شيء .. أنا دائم البحث عن عمل ، وأحياناً أعمل مع والدي بعض الوقت ويعطيني ٣٠ أو ٤٠ جنيه ، وتمكَّنت في الفترة السابقة من دفع مصاريف استخراج كارنيه النقابة حتى أستطيع أن أعمل محامياً تحت التمرين ، وأفكِّر أن أكتب بعض الأغاني لمطربي الكاست الشباب .

فتح نور محفظته ، وأخرج قصة " في الطريق " وقال : لقد قرأتها أكثر من ٢٠ مرة .

ثم سألني عن أحوال السرية والتغيرات التي حدثت فيها فقلت له: إن الخدمات صارت خمساً بدلاً من ثلاث ، مما زاد عدد الوقوف خدمة .

وحدثني عن تسليم المهمات في نهاية خدمته ، وما تمَّ في يوم التسليم ، وذهب وأحضر زجاجتي برتقال وليمون .. أخذت زجاجة البرتقال ، ثم أخذني إلى محلات بيع الباريهات ، واشتريت باريه للصول الليثي ، وودَّعته على أن نلتقي يوم ٢٩ الشهر القادم بعد الساعة الواحدة .

وبعد عودتي إلى السرية أخبرت بعض الزملاء بموضوع خضر ، وانتشر الخبر سريعاً انتشار النار في الهشيم ، وكل واحد يأتي

ليسألني عن تفاصيل القصة ومدى صحتها فأقول له : نور قال لي أنه قرأ في إحدى الجرائد كذا .. كذا .. كذا ... "

هأنذا وفيت بوعدي لك عزيزي القارئ فحكيت لك نهاية قصة خضر ، وأين يضع نور قصة " في الطريق " وبقي أن أحدثك عن سمير علوم ، وعندما فتح لي وجيه قلبه .

وسأبدأ الآن عزيزي القارئ بالحديث عن حكايات سمير علوم .

" ٢٢ /٩ / .. تحدثت مع سمير علوم أحد الأفراد المستجدين عن ذكرياته الجميلة ، والبداية كانت عن الحديث عن الجامعة وأيامها التي مرَّت كحلم جميل ، وكأني ضغطت على الوتر الحساس فبدأ سمير ينفعل ويحكي عن ذكرياته في الجامعة : " أسعد أيام حياتي تلك التي أمضيتها في الجامعة ، ويكفي أني رأيت فيها سهام زميلتي الجميلة ..

– ما حكاية سهام هذه ؟

– سهام زميلتي في الكلية كانت بداية علاقتي بها عندما كنا في معمل الكيمياء حيث كنا نجري بعض التجارب الكيماوية .. تفاعل عنصرانا معاً مع أول تجربة كيمياء وانصهرت روحانا ، واشتعل قلبانا مع أول تجربة في الكيمياء والحب .

– احك لي الحكاية بعيداً عن تشبيهاتك الكيماوية هذه ؟

– أنا أحببت الكيمياء بسبب معرفتي بها ، بل أحببت الكلية لأنها جمعتني بها ، ظللنا في حلم جميل وطويل ثلاث سنوات لم يكن يفرق بيننا إلا سواد الليل الذي كرهته لأنه يفرِّق بيني وبينها .. وكنت أول طالب يدخل كلية العلوم صباحاً .. كل كلام الحب، والغرام ، والهوى ، والعشق ، والغزل قلناه .. أحببتها بكل كياني ووجداني وفي السنة الثالثة تقدَّم لها ابن عمها المهندس الذي عاد من الكويت مُحَمَّلاً بالدنانير والدراهم ، وطلبتْ سهام مني أن أطلب يدها من أبيها .

أستأذنك عزيزي القارئ أن أرجئ بقية حكايات سمير فقد بدأت رقبتي تؤلمني ، ولا بد أن أريحها .

***

٢٤

هأنذا أعود لك عزيزي القارئ لأكمل لك قصة سمير .

" – وماذا فعلتَ ؟

– لم أستطع أن أكلِّم أبي ولا أباها .

– لماذا ؟ ألست تحبها كما تقول ؟

– ماذا أقول لأبي أريد أن أتزوج وأنا مازلتُ طالباً في السنة الثالثة ؟! وماذا أقول لأبيها أرفض خطوبة ابن أخيك المهندس الغني الجاهز واقبلني خطيباً لابنتك بدلاً منه ؟!

– وماذا حدث بعد ذلك ؟

– بعد أن عجزت عن التقدم لخطبتها قطعتْ سهام علاقتها بي نهائياً .

– وهل انتهى الموضوع عند هذا الحد ؟

– في امتحانات السنة الثالثة قلت لها : أني أريد أن أتحدَّث معك بعد الامتحان ، وبعد انتهاء الامتحان انتظرتها ، وإذا بصديقتها تخبرني أن سهام خُطِبت ، وأن خطيبها سيمر عليها اليوم بعد الامتحان ، ومن يومها لم أستطع أن أُكلِّمها مطلقاً على مدار السنة الرابعة كاملة رغم أن ظروف المعمل كانت تضطرنا أن أعمل معها وكنا نتعامل بالنظرات والإيماءات والإشارات ..

– نظرات حب ؟

– ليست نظرات حب إنما نظرات خاصة بالعمل .. كنا متفاهمين إلى أبعد حد .

– وانتهت علاقتك بسهام عند هذا الحد ؟

– نعم .. وبعد هذه العلاقة التي تألمت منها كثيراً بدأت أتلفت حولي باحثاً عن فتاة أخرى تنسيني سهام حبي الأول ، فقوَّيت علاقتي بزميلتي سامية التي كانت تتحدث معي كثيراً ، وتسير معي كثيراً ، وتذهب إليَّ في المدينة الجامعية حيث كنت أسكن ، وتنتظرني في الاستراحة كل هذا مع إنها كانت مخطوبة ، وفي يوم سألتني سامية ألم تحب من قبل ؟ فقلت لها الفتاة الوحيدة التي أحببتها جداً ، وهنا احمرَّ وجهها وطأطأت رأسها ، وتأهبت أن تسمع اسمها فإذا بي أقول لها : سهام ، وغضبت سامية جداً من ردِّي وأخذت تصفني بأني لا أحب إلا الجميلات فقط ، وإن سهام مغرورة و... كانت سامية على استعداد أن تفسخ خطوبتها ، وتخطب لي ، ولكني لم أطلب هذا منها .

– هل لك حكايات غرامية أخرى ؟

– فتاة ثالثة اسمها صفاء جميلة جداً تربية قسم إنجليزي عندما رأيتها أعجبت بها جداً أعجبني شكلها واسمها لأني كنت أحب كل الأسماء التي تشبه اسم سهام أو على وزن اسمها .

عرفت أن هذه الفتاة تربية قسم إنجليزي ، بدأت أحضر معها محاضرات السنة الثالثة ، ثم قررت أن أكلمها ، وكانت تقف مع زميلاتها فناديت عليها ، لو سمحت يا آنسة أنا أريدك في كلمة ، فردت عليَّ قائلة : أنا آسفة . ورفضت أن تكلمني، وفي مرة ثانية حضرت معها محاضرة دراما وجلست بجوارها فأبدلت مع زميلتها المكان حتى لا تجلس بجواري فقلت لزميلتها : إني طالب في السنة الرابعة ، وعندي مادة من الصف الثالث وطلبت منها محاضراتها فقالت لي إنها ليست معها المحاضرات فطلبت منها أن تسأل زميلتها التي تجلس بجوارها فسألتها فأخبرتها أنها ليست معها محاضرات هذه المادة .

– وهل انتهى الموضوع عند هذا الحد ؟

لا .. فذات مرة كانت تسير بمفردها طلبت منها أن أتكلَّم معها في موضوع فاعتذرت لي ومشت . المهم أصررت على أن أتكلَّم معها، وإذا استرحت لها أخطبها ، وعرف صديق لي الحكاية ، وكان يعرف صديقة لها ، وعرف عنها كل شيء عرف أن أباها موجه لغة إنجليزية ، وحالتهم المادية متوسطة ، وطلبت من صديقي هذا أن يدبِّر لي معها ميعاداً ، وفي الميعاد جاءت صفاء وصديقتها ، واستأذنت صديقتها التي قامت بدور الوساطة وانصرفت . قلت لصفاء إني معجب بك ،وكنت أتمنَّى أن أكلمك.

فقالت لي : إن هذه أول مرة – والله – أتكلم مع شاب ، وإني خائفة جداً وجسمي يرتعش ، وطلبت مني أن أكلِّم أباها في الموضوع ، وأن أباها سوف يطلب مني أن أشتري لها شقة في نفس الشارع الذي تسكن فيه أو في شارع قريب منه .

- وماذا فعلت هذه المرة ؟

- ذهبت إلى أبيها في مدرسته ولم أجده ، وعندما كلمتها مرة ثانية سألتني : هل كلمت أبي ؟ فقلت لها : ذهبت إليه ولم أجده . فقالت لي : أنها فاتحت والدها ، وأن أباها متمسك بشرطه ولن يتنازل عنه ، وهي ليس بيدها شيء ، طلبتُ منها أن تسمح لي باستمرار اللقاءات بيننا حتى يتعرَّف كل واحد على شخصية الآخر ، ولكنها رفضت .

ثم خطب سمير فتاة أخرى لم يذكر لي شيئاً عنها وكل ما قاله أنه لا يحب خطيبته ؛ فهو لم يحب إلا واحدة فقط هي سهام فقط فقد قال لسهام كل كلام الحب الحقيقي المفعم بالمشاعر الصادقة. وخطيبته رغم أنه يخرج معها ويقول لها كلام حب إلا أن الكلام من وراء قلبه .

هذه حكاية سمير علوم ، ولم يبق إلا حكاية وجيه ، وسأبذل كل جهدي في البحث عن كل ما يتعلَّق بوجيه .

" ٩/٢٣ ... أخذنا طابور زيادة بسبب أن ف٣ لم تنظف فصيلتها ، وكان طابوراً قاسياً جدا جداً ، وقفنا في الحر الشديد حتى شعرت بقدمي تشتعل فيها النار ، أنا لا أبالغ فعلاً الرمال كانت كجمرات النار ، والشمس كانت سهام اللهب ، والثبات حطَّم أعصابنا .

عدت بعد الطابور الذي استغرق ٥٠ دقيقة في حاجة ماسَّة للنوم لأرتاح ، لم أستطع أن أصلي أو أغسل وجهي أو قدمي ، خلعت الأفرول لأن الجو كان حاراً جداً جداً ، وبمجرد أن استقرَّ جسدي على السرير وكادت عيني المسهدة تنام أيقظونا لدفع العربة الـ يونيمك ، في الجيش ليس من حقك أن تعترض أو تنفعل أو حتى تبدي استياءك .. تتلقى الموت وأنت تبتسم .. تحاملت على نفسي ، وذهبت ودفعنا العربة إلى أن دارت وعدت إلى السرير .

لم يستقرَّ جسدي على السرير حتى جمعونا مرة ثانية ، قد توقفت العربة ثانية ، وبعد جهد دارت ، وعدت ، وارتميت على السرير يائساً ، لم يكد الجسد المتعب يلامس السرير، حتى جمعونا للمرة الثالثة ، في هذه المرة كدت انفجر ، لكنني ابتسمت ، وقمت ، وفي هذه المرة بذلنا جهدا كبيراً في دفع العربة حتى دارت، وعدت واستلقيت على السرير حاولت النوم ولم أستطع .

ونحن نتناول الغداء كان حديث الزملاء ينضح أسى وحزناً ، وفوجئنا بوجيه يقول كلمته الأثيرة لعله يكون خيراً فقال حسام غاضباً : أي خير في هذا ؟! هل من المنطق أن ندفع عربة الـ يونيمك ثلاث مرات في هذا الحرِّ الحارق ، ونحن قد هلكنا في الطابور الزيادة .

ابتسم وجيه ابتسامة الرضا التي تثير غيظك أحياناً ، وقال لحسام : ألم تكن تحس أنك غير قادر على عمل شيء بعد الطابور ؟

قال حسام بامتعاض : نعم ..

وجيه : ولكنك قمت ودفعت العربة

قال حسام بانفعال شديد : وتعبت جداً .

– ولكنك استطعت .. ودفعتها مرة ثانية .. وثالثة ، ويمكن أن تدفعها رابعة وخامسة .

قال حسام متعجباً : لا أدري ماذا تقصد ؟

– أليس هذا درس في أنَّ الطاقة الإنسانية داخلك أقوى مما تظن؟ أليس في هذا مران لك على تحمل المواقف الصعبة التي يمكن أن تمر بك إذا قامت حرب أو في الملكية ؟

قال حسام بسخرية : ولكنهم لم يُفْهِمُونا ذلك ؟

– يجب أن تثق بقيادتك .

صاح حسام غاضباً : أليسوا بشراً ؟ ألا يخطئون ؟

– نحن جنود وربما قامت الحرب بين لحظة وأخرى ، وإذا قامت الحرب أو كلفنا بأي عملية حربية فستعرف قيمة ما تكرهه الآن يقول تعالى ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ القِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾

ضحك حسام ساخراً وقال : إذن العربة الـ يونيمك هي الشر فقال وجيه وهو يغالب الضحك : هذا الشر فيه خير لك أليست هذه العربة التي نضع عليها فناطيس الماء ، ولولاها لمتنا من العطش .

حسام : ونحمل عليها الطَّفْلَة التي تدفنا في التراب .

قال وجيه وهو يضحك : ألم نبن بهذه الطَّفْلَة مسجد السرية الذي ندعو الله تعالى أن يُبْنَي لنا به قصراً في الجنة ؟

قال حسام وهو يحاول أن يقنع وجيهاً أن هناك من الأمور التي نكلَّف بها غير ذات فائدة : وما رأيك في تنظيف السلاح يومياً بالسولار ؟

وجيه : فيه خير فهو يحافظ لك على سلاحك نظيفاً حتى إذا صدرت لك الأوامر باستخدامه كان جاهزاً للقضاء على العدو ولحماية نفسك .

– والخدمة التي نقفها كل يوم في البرد الشديد ؟

– لحراسة نفسك وزملائك ووطنك وأنت في هذا مثاب ألم تسمع قول النبي " عَينانِ لا تمسُّهما النَّارُ: عينٌ بَكَت من خشيةِ اللَّهِ، وعَينٌ باتت تحرُسُ في سبيلِ اللَّهِ " ؟!

سكت حسام راضياً ولم يرد .

أحسست بالراحة بعد كلام وجيه ، وذهبت فتوضأت وصليت ، وأحسست بالفخر أني استطعت أن أقوم بهذا المجهود الجبَّار في هذه الأجواء القاسية لقد هوَّنت كلمات وجيه هذه عني مواقف كثيرة كنت أعدها من مآسي حياتي والآن أعدها من فاخرها " .

صدق والله وجيه إن قواتنا المسلحة الآن تخوض أشرس المعارك على كل الجبهات لو لم يكن الضباط والجنود قد تدرَّبوا جيداً وتحملوا المشاق والصعاب لما تحملوا هذه المعارك وانتصروا فيها، لو لم يشتد قادتهم عليهم في التدريب لكانوا هم الضحايا لا الإرهابيين .

عجيب وجيه هذا ترى أين هو الآن ؟ وماذا يعمل وهل حقق طوحه أم ماذا ؟

" لم يكن عندي خدمة في هذا اليوم فنمت مبكراً بعد العشاء ولم أستيقظ إلا في الصباح .

بعد الطابور والإفطار قمنا بتنظيف السرية لمدة ساعة ونصف ، ثم جمعنا لإحضار منضدة " البنج بونج " ، وذهبت إلى الضابط

مدحت لكي أقنعه بأن نحمل المنضدة على العربة الـ يونيمك بدلاً من حملها بأيدينا ، لكنه لم يستمع لهذا الاقتراح .

تذكَّرت كلام وجيه بالأمس فابتسمت ونفَّذنا الأمر ولكن في هذه المرة لم أكن غاضباً ولا متبرماً ، رغم تعبنا الشديد في حملها.

" ٢٥/ ٩/ .. ذهبت مع محمود تربية لإحضار التعيين من ك ١١٦ ، وفي أثناء الطريق سألني عن وجيه فقلت له : إنه يريد أن يبدو مثالياً ، ينفِّذ الأوامر بكلِّ دقة ، ولا أدري عن خوف وجبن أم شجاعة وإخلاص؟

فقال محمود : أظن أنه يفعل ذلك بإخلاص واقتناع فبالأمس كنت أعمل معه في مساعدة كامل في محارة المسجد ، وفوجئت أنه ... " .

– أدركني .. أدركني يا سامي .

***

٢٥

أول أمس وبينما كنت أتكلَّم عن وجيه سمعت زوجتي تصيح بل تستغيث ، وعندما دخلت البلكونة حيث كانت تنشر الغسيل فوجئت بعاصفة ترابية ، وسمعت صوت الرعد ، ورأيت نور البرق ، ثم هطل المطر غزيراً، وساعدت زوجتي في جمع الغسيل بسرعة وإخراج شريف من البلكونة حيث كان يقفز ويصيح سعيداً بالمطر الغزير ، كنا في نهاية شهر أبريل وبالتحديد ٢٤ أبريل لم يكن الوقت وقت مطر ولا عاصفة ولكن هذا ما حدث .

ظلَّ المطر يهطل لأكثر من ساعتين سيولاً وبدأ سقف الصالة يسيل منه الماء وسرعان ما غرق السجاد والأثاث .. طوينا السجاد وأبعدنا الأثاث عن مصادر المياه ، وكانت ليلة عجيبة .

وكان يوم ٢٥ أبريل إجازة بمناسبة عيد تحرير سيناء الحبيبة وكنت عقدت العزم على استغلاله في إنجاز أكبر قدر من الرواية، وإذا بي أمضيه كله في تنظيف الأثاث وغسيل السجاد هذا السجاد الذي لم يمض على غسله شهران .. لكن الحمد لله من قبل ومن بعد ، ويكفي أن زوجتي شكرت لي وقفتي البطولية معها في الليلة الممطرة وفي اليوم التالي لها .

المهم نعود إلى حديث محمود عن وجيه :

" أثنى محمود تربية على مهارة وجيه في تخمير المُونة ، وقال له وجيه إنه لا يحب أن يكون الثاني في أي عمل يعمله إنما دائماً الأول فزاد إعجاب محمود تربية به .

قلت في نفسي كلنا نتمنَّى أن نكون الأوائل ، ولكن وجيه يحاول أن يوهمنا بذلك في أي عمل يعمله .

ولكن بعد أن فتح لي وجيه قلبه غيَّرت رأيي تماماً ، والقصة بدأت يوم " ٢٨/ ٩/ ... كان عندي خدمة ثانية ضلع ، وكان الجوُّ جميلاً جداً ذهبت للنوم قبل ميعاد خدمتي في الملعب تحت شبكة " الجول " وكان الجوُّ مثالياً حقّاً ، وكان الراديو يذيع أغنية " قارئة الفنجان " كاملة ، وتحدَّثت مع وجيه حديث المناجاة التي هي أشبه بالاعتراف .

سألني وجيه عن تجاربي العاطفية عندما لاحظ تأثري بالأغنية.

وبدأت أحكي له قصتي مع سلوى شيئاً فشيئاً ، ثم سألته عن تجاربه العاطفية فسكت وطال سكوته ، وكدت أعتذر له عن سؤالي وفوجئت به يقول هامساً : أنا كنتُ متفوقاً في الجامعة تقريباً الأول على الدفعة وكانت هناك مسابقة تعقدها الكلية تسمى " المسابقة الثقافيَّة للطلبة النوابغ " وكان لكلِّ قسم من أقسام الكلية

فريق : فريق لقسم إنجليزي ، فريق لقسم فرنسي ، وفريق لقسم تاريخ ... وهكذا ، ولقد اختاروني في فريق قسم اللغة العربية وأنا طالب في الفرقة الثانية ، أما في الفرقة الثالثة فقد أصبحت رئيس فريق القسم ، وفي الليسانس صرت رئيساً لفريق الكليَّة الذي كان يلاعب الكليات الأخرى ... تجارة ، حقوق ، علوم ...

واخترت فريق الكليَّة وكانت هناك طالبة في قسم تاريخ جميلة جداً اسمها أمل صلاح منذ رأيتها عندما كنَّا نلاعب قسم تاريخ وهي على بالي دائماً فقد تجمَّعت فيها كل الصفات التي أحبها : الثقافة والجمال وحسن الخلق ، ويبدو أنها كانت معجبة بي كذلك، واقتربنا أكثر عندما اخترتها في فريق الكليَّة وكُنَّا نُجهِّز أنفسنا لملاقاة فرق الكليات الأخرى نُقسِّم الأعمال فواحد يحفظ جميع العواصم العالمية والعملات الأجنبية، وواحد يهتم بالأدب العربي، وآخر بالأدب الإنجليزي ...

وكانت هي بالطبع مسئولة عن التاريخ والسياسة وكانت معلوماتها الثقافيَّة واسعة خاصة في التاريخ والسياسة وأنا كنت أظن أن العلم والثقافة فتى ، وليست فتاة ، وهذا ما جذبني إليها بشدَّة فإذا اجتمع : العلم ، والثقافة ، والجَمَال ، وحسن الخُلُق فهذه هي الفتنة التي لا تقاوَم ، فإذا أُضِيفَ إلى كل ذلك الحَسَب والنَّسَب والغِنَي ...

فقلتُ مازحاً : فهذه الجنة ونعيمها .

فقال : فهذا هو البلاء المُبين .

– كيف ؟

– أنا يا عزيزي شاب فقير بل قُلْ مُعدِم . أبي عامل بسيط وكل ما أكسبه من عملي طوال الإجازة الصيفيَّة أنفقه في شراء الكتب ، واحتياجاتي الأساسيَّة ، فماذا تفعل لو كنت مكاني ؟

– المفروض أن تكلِّمها وتشرح لها ظروفك ، وهي معجبة بك ، كما قلتَ ،وأنت شاب مثالي: علم وثقافة وخلق حسن ودين وأمامك مستقبل كبير ينتظرك والفقر ليس عيباً ؛ فكل العظماء كانوا فقراء.

– هذا كلام تشاهده في الأفلام والمسلسلات أو تقرؤه في القصص والروايات ، ولكن الواقع غير ذلك .. الحب تَرَف لا يملك ثمنه الفقراء .

– لم أكن أعرف أنك متشائم هكذا .

– أنا لست متشائماً أنا إنسان واقعي أحاول أن أستفيد مما تعلمتُ في حياتي .

– المهم ، ماذا فعلتَ مع صاحبتنا ؟

– تدبَّرت الأمر مَلِيّاً ، ووصلت لقرار صعب جداً ولكنَّه شرٌّ لا بد منه كما يقولون .

– قرَّرت أن تنساها .

– أكثر من هذا .

– أهناك أكثر من أن تتساها ؟!

– نعم .. أن أُفْسِد العلاقة بيني وبينها حتى لا أحن إليها مرة ثانية .. فعلت كما فعل قطز مع رسل التتار حتى يجبر أمراء المماليك المتخاذلين على دخول المعركة .

– أو كما أحرق طارق بن زياد سفنه التي عبر بها جيشه المضيق إلى الأندلس وقال " أيها الناس؛ أين المفرُّ؟! والبحر من ورائكم والعدوُّ أمامكم" .

– لكن طارق بن زياد لم يحرق سفنه ولم يقلْ تلك العبارة في خطبته هذا ما قاله المحقِّقون من علماء ...

– دعنا الآن من طارق بن زياد وقل لي : ماذا فعلت ؟

– كنتُ كلما رأيتُها أتجاهلها تماماً ، أتحدَّث مع جميع فريق الكليَّة ولا أتكلَّم معها بل لا أنظر إليها أبداً وإذا رأيتها في مكان غيَّرت اتجاهي لكي لا أراها ، وفي مباراة لنا مع كليَّة تجارة القاهرة سُئلنا سؤالاً : من رائد المدرسة السريالية ؟

فقلتُ : هل هناك أحد عنده إجابة ؟

فقالت أمل : أظن إنه بيكاسو .

فقلت بغضب : ليس هناك شيء اسمه أظن إما أن تكوني متأكِّدة من الإجابة أو تتركي غيرك .

– لم أكن أعرف أنك بهذه القسوة ..

– كان لا بد أن أقطع كل صلة بيني وبينها للأبد فاستغللت خطأها في الإجابة وقت ما قلت .

– حرام عليك .. لقد أهنتها .. أليست هناك طريقة غير هذه لكي تَبْعد عنها ؟

– يا عزيزي أنا رجل لي أهداف محدَّدة إذا دخلت حياتي فتاة أفسدتها وأنا لست على استعداد أن ...

– اسمح لي أنا أقول لك إنك إنسان بلا قلب .

– أتعرف عشقي الحقيقي ؟ ... " .

صو .. صو .. صو .. صو .. صو ...

***

٢٦

أعتذر عن عدم تكملة حديث وجيه أمس فقد حدث أن ماسورة صرف المطبخ قد سدَّت في شقة الأستاذ سيد التي في الدور الثالث وغرقت شقتها ، واجتمع السكان وقرَّروا تغيير ماسورة الصرف وتركيب غيرها ، وكلَّفنا الأستاذ مجدي بالاتصال بالسبَّاك وحساب التكلفة.. المهم لم أستطع تكملة حديث وجيه أمس ، وهأنذا أكمله لك اليوم عزيزي القارئ بعد توقُّف الضوضاء وانصراف السبَّاك .

" ٢٨/ ٩/ ... قال وجيه : عشقي الحقيقي هو الجامعة .. بالأمس كنت أقرأ في بعض الأوراق من صحف قديمة مختلفة كان من بينها صفحة في جريدة الجمهورية عن تنسيق الثانوية العامة .. لاحظت شيئاً عجيباً وهو أن لديَّ حبًّا شديداً جداً أو ضعفاً أو شوقاً لا أدري ماذا أسميه للجامعة والكليات ؛ فالكلية أو الجامعة ما تزال حلماً أهفو إليه .. دائماً عندي ظمأ إلى أي شيء عن الجامعة ، وقد يكون لي عذر إذا لم أتخرَّج من إحدى كلياتها لكن الذي لا مبرَّر له هو أن هذا الشعور ما زال يسيطر عليَّ بشكل ملحٍّ لا ينتهي أبداً فالجامعة بالنسبة لي كالماء الذي لا أعيش في وسط سواه ، وعندي دائماً فقر إلى معرفة المزيد عنها ،

وعن وأخبارها ، وأخبار الطلبة أليس هذا شيئاً عجيباً ؟! أنا أجزم بأن شوقي للجامعة يفوق شوق من أخفق في الالتحاق بها ...

(وانطلق وجيه ، وهو بطبعه قليل الكلام ، لكنه عندما جاء ذكر الجامعة انطلق يتكلَّم بلا توقُّف وكأنَّه يحلم حلماً جميلاً لا يريد أن ينتهي) .

– قرأت الصفحة التي كتبتْ عن التنسيق وهاجت نفسي وتمنَّيت لو كنتُ واحداً ممن سيلتحقون بالجامعة هذا العام ، والذي صبَّرني أني بإذن الله سوف ألتحق بالدراسات العليا هذا العام لمدة سنتين على الأقل وسأرى الجامعة في الشتاء والطلاب يتوافدون عليها في الصباح وقاعات المحاضرات وأرى الجامعة في المساء والندوات ومناقشة رسائل الماجستير والدكتوراه ، ليتني أقضي عمري طالباً في الجامعة فإن لم يكنْ فعلى الأقل أستاذاً بها .

– تقصد العكس أن تكون أستاذاً بها ، فإن لم يكن فطالباً فيها.

– لا .. أنا أعني ما أقول وليس هناك خطأ في الكلام .

تركتُ وجيهاً يحلم بالجامعة ورحت أنا أحلم ... " .

– سامي .. سامي ...

يااااه لقد نسيت تماماً أن هذه الليلة ليلة الجمعة أستأذنك عزيزي القارئ " إن لأهلك عليك حقاً " .

***

٢٧

نكمل عزيزي القارئ حكاياتنا في سيناء .

" ٣٠/ ٩ / ... كان هذا اليوم هو المولد النبوي واجتمعنا في ف٢ وحضر معنا الضابط مدحت والصول عبده ، وعملنا حفلة بدأها إبراهيم بقراءة ما تيسر من آي الذكر الحكيم ، وألقى عبد الرحمن خطبة عن المولد النبوي ، وكنت أتمنى أن أسمع شيئاُ من وجيه لكن وجيهاً من عادته ألا يتكلم في أي مناسبة إلا إذا طلب منه ذلك بل أُلِحَّ عليه عكس عبد الرحمن الذي يبادر بإلقاء الخطب الدينية بمناسبة وبدون مناسبة ، ثم عزف لنا عبد الجيِّد على نايه : غنِّي لي شوي .. شوي لأم كلثوم ، سلامات سلامات سلامات يا حببنا يا بلديات لنادية مصطفى وغيرهما ، وبعدما انتهى عبد الجيِّد من العزف قال الضابط مدحت لي : وأنت يا شاعر أليس عندك قصيدة تسمعها لنا ؟ أو أي شيء ؟ فقلت له : لا .. أنا لا أكتب شعراً فقال الضابط مدحت : نعم .. نعم .. تذكرت .. تذكرت أنت تكتب قصصاً .

وزَّع علينا الضابط مدحت قطعتي باسبوسة لكلِّ فرد وقال لنا : كل الخدمات الزائدة كما كنت أي مُلْغَاة ثم مازح وجيهاً الذي

لا يجلس بجوار أحد غيره عندما يجتمع بنا في إحدى الفصائل فقال له : أما أنت فأربع خدمات متَّصلة ، وضحك وجيه وضحكنا جميعاً ... " .

بالمناسبة الضابط مدحت مسيحي .

أنا أعرف عزيزي القارئ رغبتك في معرفة بقيَّة حكاية وجيه والقصة التي كتبتها فيه ، والحمد لله وجدت بقية حكاية وجيه .

" ٢/١٠/ ... ذهبت أنا ووجيه لنحضر تعيين العشاء من ك١١٦ وكان الجوُّ شاعريّاً يغري بالحديث في الحب ، وأنا أحس أن وجيهاً مرَّ بتجربة حب قاسية لا يريد أن يذكرها ، ولكن كيف أمهِّد له الحديث عنها أو عن الحب عموماً ومن خلال حديثه عن الحب يمكن أن أستدرجه في الحديث ، وتذكَّرت حكاية قالها لي صديق لي في الإجازة الماضية .

– قال لي أحد أصدقائي حكاية عجيبة .

– أكيد حكاية عاطفية .

– وما الذي يجعلك متأكداً من إنها حكاية عاطفية ؟

– هذا ما يشغل الشباب ، وتدور حوله معظم أحاديثهم .

– قال لي صديقي محمد كامل إنه كان يحب فتاة ، وعندما صارحها بحبه قالت له : أنا أعتبرك أخاً وصديقاً .. وتضايق

محمد جداً ، وأهمل دراسته ، ولم يدخل الامتحان الأول ، ولكنه عندما حدَّثني في هذا لمت عليه لوماً شديداً ونبَّهته إلى ضرورة الاهتمام بدراسته، ولا يجمع بين الفشل في الحب والفشل في الدراسة ، وقلت له كيف يضيِّع مستقبله من أجل واحدة رفضته ، وذهب إلى أستاذة الامتحان الذي تخلَّف عنه ، وهي أستاذة كبيرة وطلب منها أن تعيد له الامتحان فسألته لماذا لم تحضر الامتحان ؟ فقال لها: لم أكن مستعداً له ، وخفت أن أرسب في الامتحان وأنا لا أحب الفشل .

قالت : ولماذا لم تذاكر ؟

قال : كان هناك موضوع فشلت فيه .

– موضوع عاطفي ؟

– نعم .

قالت : ومن منا لم يفشل ؟ إن أساس نجاحنا هو الفشل ، وهذه الفتاة لا تستحقك ، وسوف تجد من هي أفضل منها ؛ إنها فتاة غبية لأنها صدمتك ، وعليك ألا تفكِّر فيها .

تأثَّر وجيه بكلام الدكتورة ، وقال لي : كلام صادق وعميق جداً، قلت : رغم عدم معرفتها به المعرفة الكافية ، بل أكثر من ذلك فقد وافقت أن تعيد له وحده الامتحان !

– لقد كان معها صادقاً فصدَّقته وتعاملت معه بصدق .

ثم سألني وجيه عن أهم ما قالته الدكتورة ؟ فقلت له : إن هذه الفتاة غبية لأنها صدمت صديقي محمداً .

فقال : إن أهم ما قالته هو " ومن منَّا لم يفشل ؟ إن أساس نجاحنا هو الفشل " .

قال وجيه هذا بتأثُّر شديد ، ثم سكت لنحو دقيقتين ثم أخذ يردد ببطء ويضغط على حروف الكلام " ومن منَّا لم يفشل ؟ إن أساس نجاحنا هو الفشل " .

قلت له : لماذا تأثَّرت بهذه العبارة كلَّ هذا التأثُّر ؟!

فحكى لي أنه مرَّ بهذه التجربة فقد اضطهده ثلاثة أساتذة : بسبب نشاطه الديني في الكلية ، ورسب في هذا العام ، وتأزم نفسيّاً ، وظلَّ شهور الإجازة يخرج من بيته ويهيم على وجهه ، ولا يعود إلا آخر الليل ، كان لا يريد أن يراه أحد فيسأله عن النتيجة فيشمت فيه أو يراه صديق فيرثي له ، وهو يكره الرثاء ويمقت الشماتة .

– " كنت أخشى أن أطلَّ من الشباك كأن كلَّ الناس كانت تنتظر خروجي . تنكَّر لي الأهل والأصدقاء ، ومن كانوا بالأمس يصفوني بالعبقري يتهموني اليوم بأني فاشل وأن تفوقي في السنوات الماضية كان مسألة حظ ، أو ربما نجحت بالغش ، كان

هؤلاء عندما كنت أتكلَّم يصمتون ، وإذا عَرَضت لأحدهم أيّةَ مشكلة هرع إليَّ يطلب رأيي " .

تأثرت بحكاية وجيه جداً ، وتفاعلت مع أحداثها ؛ فقد كنت في شوق لمعرفتها ، وانتظرت طويلاً حتى باح لي ببعض أسراره ، وفي نفس الليلة كتبت هذه القصة .

سقوط الفارس

(الشماتة تطلُّ من عيون أكثرهم ، والبقية يرثون لحالي .. الرثاء مثل الشماتة كلها سكاكين تطعنني في وجهي ، لكني سأقاوم لن أموت .. لن أحني رأسي .. لن أبكي)

رآه زميل قديم حاول سيد أن يروغ منه ولكنه هجم عليه في تحدٍّ عجيب .

- سيد .. كيف حالك ؟

- أهلاً .

- لماذا أنت هنا ؟

- ....

- آه .. تذكَّرت .. لا تحزن السنة تمر بسرعة ، وإن شاء الله تنجح وتصبح مثلي .

استبدَّ به الغضب من كلام هذا الجاهل الناجح ، ترك زميله الشامت دون أن يستأذن وأخذ يصعد السلم كعجوز يتسلَّق جبلاً

وعراً ، لأول مرة يحسُّ بارتفاعه ، ومشقَّة صعوده ، كان يتخطَّى عدة درجات في القفزة والواحدة ، والآن يصعد درجة .. درجة .. متكئاً على الإفريز ، منكَّس الرأس ، تذكَّر أنه أقسم إلا يطأطئ رأسه أبداً .. رفع رأسه في كبرياء مصطنع ، عند أخر درجتين رأى طالبة تغطِّي وجهها بالأصباغ وقد جسَّم جسدها ما ترتديه من ثياب فبدت كتمثال إغريقي عار همَّ أن ينكِّس رأسه خجلاً تذكَّر القَسَم فلم يغُضَّ طرفه ، في نهاية السلم وجد ثلة من الطلاب والطالبات يتصايحون كأنهم يتشاجرون لم يفهم من كلامهم شيئاً لكن الشيء الوحيد الذي كان متأكداً منه أنهم لم يكونوا يتحدَّثون في موضوعات علميَّة أو دراسيَّة .

أخذته أقدامه جهة اليسار ، وبعد أن خطا عدة خطوات تذكر أن المحاضرة في مدرَّج ١٨ توقَّف فجأة وغير اتجاهه إلى جهة اليمين عندما مرَّ بثلة الطلاب مرة أخرى أحسَّ أنهم يضحكون عليه همَّ بتنكيس رأسه لولا أنه تذكَّر قَسَمه .

نتيجة العام الماضي ما زالت معلقة .

(مازال سلاح الجبناء مُشْهراً)

داست النتيجة على رأسه كاد ينكسه ولكنه قاوم بكلِّ قوته ، وأشاح بوجهه عنها .

رأى أستاذ النقد يخرج من المحاضرة بسرعة ، وبعض الفتيات الحسان يجرين وراءه تملَّكته رغبة جامحة أن يبصق عليه لكنه

ازدرد ريقه فأحسَّ بمرارة في حلقه ، تجنَّب أن ينظر لليمين لئلا يرى أحداً لكنه فوجئ بمن ينادي عليه .

– سيد .. سيد

عندما رأى صاحب الصوت انبسطت أساريره ، وابتسم وهو يقول: خالد .. أهلاً .

ولكن سرعان ما انقبضت نفسه وإن كانت شفتاه ما زالتا منفرجتين (الرثاء مثل الشماتة) .

– سيد كيف حالك ؟

– الحمد لله .

– لقد اشتقت إليك فجئت لأراك .. ما أخبارك ؟

– لا جديد .

– أنا سعيد أنك انتظمت في الدراسة المواجهة هي خير وسيلة لنزال الجبناء .

ثم قال خالد مداعباً : أتتصور أني أحسدك .

– عَلامَ !!

– لأنك تجد ما تشغل به وقتك ، أما أنا فلا أجد ما أعمله .. والله أيام الدراسة كانت نعمة .. ليتها دامت .

– (أنت تقول ذلك لأنك ...)

– أسمعت يا سيد آخر خبر .

- ما هو ؟

- لقد عينوا نبيلة معيدة !

- أيعقل هذا !!

- والله هذا ما حدث نبيلة التي لا تستطيع نطق جملتين صحيحتين عُيِّنت معيدة !!

- نبيلة هذه لم أسمعها يوما تناقش أستاذاً ، أو تبدي رأياً في شيء لقد كانت ....

- الشيء الذي لا أستطيع أن أصدِّقه .. كيف ترسب في أربع مواد ؟ .. أكيد هناك خطأ .. لماذا لا تطلب إعادة تصحيح هذه المواد أو على الأقل تطلب إعادة رصد درجاتها؟ أ ليس من الممكن أن ...

- ألا تلاحظ أن المواد الأربع هي نفسها مواد الأساتذة الذين ...

قاطعة خالد قائلاً :

- سحر آتية سأتركك الآن وأراك فيما بعد .. سلام

- خالد .. خالد .. انتظر .. انتظر (سحر ماذا تفعل هنا ؟ ليتها لا تراني ليتها ...)

- سيد أنت هنا أنا حظي سعيد أن أراك .

قال سيد وهو يتظاهر بالثقة والثبات :

- أهلا .. سحر .. لماذا أنت هنا اليوم ؟ هل اشتقت للكلية؟!

قالت وهي تشمخ بأنفها :

– لا .. أنا التحقت بقسم الدراسات العليا .

– ماذا ؟!!!!

– دراسات عليا .. أيحزنك هذا ؟

لم يصدق سيد ما سمعه (سحر تدرس دراسات عليا !! .. سحر ! لقد كانت مفاجأة أن تنجح .. أتراها فعلت هذا لتثير غيظي ؟ .. لتثبت أنها أفضل مني ؟ .. لتنتقم مني ؟ ..)

– مالك مطرق هكذا .. ألا تصدق أم أنك تعتقد أني لا أصلح؟!

– (ما هذه الجرأة التي تكلِّمني بها ! متى اكتسبتها ؟ !.. لقد أجَّلت مناقشة بحثها إلى آخر العام لأنها تخشى مناقشتي لها ، وعندما قمت لأناقشها كادت تبكي وهي ترجوني أن أرحمها من مناقشتي .. وها هي تحقق الحلم الذي عشت له .. إنها تريد أن تنتقم مني لأني الوحيد الذي صمد أمام جمالها .. أنا الوحيد الذي كان لا يأبه بها .. انتظرتْ وانتظرتْ وأخيرا قتلت كبرياءها وطأطأت رأسها أمامي .. والآن بعث النجاح كبرياءها ، وتريدني أن أطأطئ رأسي أمامها .. هيهات .. هيهات)

يحس الآن أنه في حاجة شديدة في أن تعود سحر كما كانت الطفلة الساذجة التي تسأله عن البحر الذي أتى منه بهذه المعارف.. تسأله عن البيئة العبقرية التي أنجبته .. تسأله عما

يحب ويكره .. (كانت أسئلتها الطفولية تثير فيَّ رجولتي ولكن يبدو أن الطفلة الصغيرة قد كبرت ، وأن رجولتي قد شاخت)

– لماذا أنت ساكت هكذا ؟ .. لم تكن تكف عن الكلام .

قالت سحر هذا بشيء من السخرية .

– لقد أدركت أنه لا جدوى من الكلام فقرَّرت السكوت .

قالت وهي لا تحاول إخفاء شماتتها :

– خيراً فعلت .

ونظرت في ساعتها وقالت :

– لا أستطيع أن أبقى معك أكثر من هذا فعندي محاضرة مهمة .. إذا احتجت إلى شيء في الدراسة فلا تخجل من طلبه مني .

وتركته وذهبت .

– (" إذا احتجت إلى شيء في الدراسة فلا تخجل من طلبه مني ! " هذه هي نفس العبارة التي كنت أقولها لها في نهاية كل حديث كان يجري بيننا !!)

أحسَّ بأن صدره يضيق ، وأن أنفاسه تهرب منه ، سقطت رأسه على صدره وعندما أفاق رفعها بسرعة وتلفت حوله ، جرَّ قدميه الكسيحتين ورمى بجثته الهامدة على المقعد .. لا أحد يعرفه من طلاب هذه الدفعة .

عندما رآه أستاذ علم اجتماع الأدب رماه بنظرة شامتة وقال له:

– لماذا أنت هنا يا مولانا ؟!!

لم يستطع سيد النطق ، ازدادت جُرأة وشماتة الأستاذ :

– أم تراك رسبت .. هل رسبت يا مولانا ؟

لم يستطع سيد النطق ، وصرف وجهه إلى الأرض ، زادت شماتة الأستاذ .

– أنت لا تحسن إلا جدال أساتذتك والاعتراض عليهم فقط .. أنا أقول لك كلمة ليتك تعيها جيداً : حرَّر عقلك من قيود الرجعيَّة والتخلُّف ويمِّم وجهك قبل الغَرْب حيث العلم والحضارة.

– (أي قناع يرتديه هذا الرجل ؟!!)

– الآن نبدأ المحاضرة .. وقبل أن ندخل في صلب الدراسة لابد من مقدمة تاريخيَّة سيتحدَّد على ضوئها المنهج الذي سنتبعه في دراستنا كلها .. في البدء كانت الشيوعية ... وفي المنتهى ستكون .

– (نفس الكلام .. نفس الجمل .. نفس الكلمات .. حتى طريقة الإلقاء الخبيثة لم تتغيَّر ، وكأنه كان يحرث فيما مضى في الماء .. نظرياته المستوردة الحمراء لا تحتاج سوى شعاع أصيل ليكشفها .. لا أحد يعترض إنه يشوه تاريخنا .. لا أحد يرد عليه .. إنه يتنكَّر لأمجادنا .. لا أحد يعترض .. إنه يطمس تراثنا ..

لا أحد يفتح فمه حتى ليتثاءب .. إنه يشكِّك في معتقداتنا .. لا أحد يتنفَّس حتى ليحيى) .

أحس سيد أن قلبه يتوقَّف عن الدقِّ ، وأن أنفاسه قد تجمدت في رئتيه ؛ هبَّ واقفاً ، وخرج دون استئذان قبل أن يموت ، ودفع الباب وراءه بقوة فأحدث دوياً هائلاً :

- (لعل أحداً يفيق) .

خرج ولم يتبعه أحد ، سار في تثاقل شديد كما العجائز ، شعر أنه غريب عن هذا المكان ، غريب عمن فيه ، غريب وهو الذي كان بالأمس صوته تردده هذه الجدران ، وشُهُبُه تبدِّد هذه الشُّبُهات، أجساد كثيرة تصطدم به في سعيها الحثيث نحو شيء لا يعلمه لمح بين الأجسام معيداً كان صديقاً له يمر بسرعة دون أن يصطدم به ، أو يلمحه ، قال له هذا الصديق يوماً إنه رأى الأساتذة بنفسه يقدِّرون درجات الامتحان دون أن يقرءوا سطراً واحداً ، لم يصدقه يومها ، كان يتمنَّى أن يسمع هذا الكلام منه اليوم .

سار في تثاقل شديد منكَّس الرأس تذكَّر أنه أقسم ألا ينحني حاول أن يرفع رأسه لم يستطع .

بدأ ينزل السلم .. كاد أن يسقط عند أول درجة ، ولكنه توكأ على إفريز السلم ، نزل ثلاث درجات سيطر عليه إحساس بأن

الطلاب والأساتذة يشاهدونه من أعلى السلم وهو ينزل منكَّس الرأس يشاهدون أسد الغابة عندما يتحوَّل إلى أسد في سرك يصعد السلم ويهبط السلم تحت تهديد السوط (سلاح الجبناء) تملَّكه هذا الإحساس لدرجة أنه رفع رأسه ليرى المشاهدين .

رفع رأسه ونظر للخلف ، وفي هذه اللحظة زلَّت قدمه فسقط .. يتدحرج .. يتدحرج .. أحدث سقوطه دويّاً شديداً ، سمعه كأنه أصوات ضحكات عالية ؛ ربما ظنُّوا أن ذلك إحدى حركات الأسد البهلوانية كان السلم عالياً وكان السقوط سريعاً، وفي النهاية قفزه السلم بالخارج .

اختلطت برأسه كلُّ المشاهد والصور (الجامعة ... أزياء الطالبات ... المظاهرات ... مناقشه حامية حول ابن تيمية ومحمد عبده ، والخلافة والحجاب ... جدال حول عبد الناصر... الأقنعة الزائفة ...المكتبة المركزية ... النتيجة القاتلة ... الشماتة... السقوط المدوِّي ...) .

أفاق .. وجد نفسه في العراء .. أحس ببرودة شديدة .. وجهه ملطخ بالدماء .. جسده عار من أي رداء .. دار ببصره يبحث عن أن شيء يتوكَّأ عليه وجد حذاءً لامعاً .. صعد ببصره وجد ساقين متناسقتين في جوربين حريريين .. رفع رأسه أكثر رأى رداء

أحمر فاقع اللون .. صعد أكثر فأكثر .. في النهاية رأى وجهاً مُصَعِّراً خده ، وأنفاً شامخاً .. هذا الوجه يعرفه من قبل .. تذكَّره .. سقطت رأسه ، ولم يرفعها ثانية .

***

بعد أن نقَّحت القصة طوال اليوم التالي طرتُ بها إلى وجيه وخلوت به وقرأتها عليه ، صافحني وجيه بحرارة بعدما سمع القصة ، وقال لي أنت كاتب قصة جيد جداً ، وسيكون لك مستقبل كبير في عالم القصة إن حالفك الحظ ، وعليك أن تسعى إلى الفرصة ولا تنتظرها .

قلت له : ما مدى تعبير القصة عن حياتك ؟

ابتسم وقال : ربما عبَّرت القصة عن حالتي النفسيَّة بعد الرسوب مباشرة لكن بعد ذلك رفعت رأسي ثانية ، وجعلتُ من الفشل سوطاً يُلْهِب ظهري .. يحثُّني على السير ، وعدم التوقُّف حتى لأستريح، قرأت مئات الكتب ، وألقيت عشرات الخطب والندوات ، وأصبحت داعية معروفاً في الحي ، ولي جلسة أسبوعية أفسِّر فيها آيات الأحكام في القرآن الكريم ، وأنهيت بقية سنوات الدراسة بتفوّق .. ولم أكتف بذلك ، وقرَّرت أن ألتحق بالدراسات العليا ، لأتفوق على كلِّ زملائي بل وأساتذتي الذين اضطهدوني .. لا بد أن أكون شيئاً لا يستطيعون أن يكونوه .. لا بد أن أكون عالماً كبيراً

من علماء الدين ، وأستاذاً كبيراً في الجامعة هذا ما يرضيني .. لم أكتف بتفوقي عليهم في الدراسة إنما نافستهم بيني وبين نفسي في كلِّ المجالات : دينيّاً ، وسلوكيّاً، وأخلاقيّاً ، وثقافيّاً ... ، ورغم أني حقَّقت كثيراً مما سعيت له ، وفشل الشامتون في الوصول إليه إلا أن سوط الفشل ما زال يلهب جسدي ، ويحثُّني على مواصلة السير قُدُماً ، والتفوُّق في كلِّ المجالات .

قلت له : إلى هذا الحد أنت نادم على فشلك ؟!

– بالعكس أنا سعيد جداً بهذا الفشل ، ولو عاد بي الزمن ما اخترت إلا ما كتبه الله لي ، فالفشل كان أهم عوامل تفوقي .

– معنى ذلك إن هناك أسباباً أخرى ؟

– نعم .

– ما هي ؟

– هناك سبب آخر ولكن لن أستطيع أن أبوح لك به ، ولا تحاول معرفته فلن أقوله لأحد .

– هل هو موضوع عاطفي ؟

ابتسم وجيه وقال : يا سامي لا تحاول فلن أتكلَّم .

– أنا لا أصدِّق أنك لم تحب ، إنسان مثلك بهذا الحساس المرهف والقلب الرقيق لا أصدِّق إنه لم يحب ؟!

– أنا حدثتك قبل ذلك عن أمل صلاح .

– هل حكيت موضوع أمل لأحد من زملائنا قبل ذلك ؟

– قلته لأسامة .

– وماذا قال لك ؟

– اعترض على ما فعلته كما اعترضتَ أنتَ ، وقال: كان يمكن أن تُكافحا سويّاً وحكى لي حكاية ابنة عمه التي كانت معيدة في كلية تربية وخُطِبت لشاب فقير دبلوم تجارة وهي من عائلة كبيرة ، وتمَّت خطبتهما تحت تأثير رغبة الفتاة وجاءها عقد عمل في السعودية ، وأخذته معها ، حيث يعملان الآن ، وزواجهما تمَّ بنجاح ، والحياة كلها كفاح .

– وماذا قلت لأسامة ؟

– قلت له مضمون ما قلته لك وهو أن أي فتاة تدخل حياتي قبل خمس سنوات سوف تفسد عليَّ حياتي .

– ما آخر مرة رأيت فيها أمل ؟

– رأيتها بعد امتحانات الليسانس في الأتوبيس النهري وكانت تختلس النظر إليَّ من بعيد ، وعندما جاءت محطتي وهممتُ بالنزول سلَّطت عليَّ عينيها الخضراوين الجميلتين وأنا أمر من أمامها .

حَوْرَاءٌ إِنْ نَظَرَتْ إِلَيْك *** سَقَتْكَ بالعينين خَمرا

ورغم الخدر الذي أصاب جسمي كله تركتها ونزلت .

- لقد ظلمتَ نفسك وظلمتها .

- الحمد لله ، أنا مؤمن بأن الخِيرة فيما اختاره الله .

- ألا تنتابك لحظات يأس ، وأنت تسبح ضد التيار ؟!

- أحياناً يصيبني اليأس ولكن سرعان ما يلهب ظهري سوط الفشل ، وأتذكَّر أني لن أضيع كفاح العمر من أجل لذة وقتيَّة .

ثم طلب مني وجيه أن أقرأ عليه القصة مرة ثانية ، وبعد أن قرأتها عليه ابتسم وقال متعجِّباً : كيف عرفتَ تفاصيل مبنى الكلية، ومكان وضع النتيجة ، ومدرج ١٨ ، بل كيف عرفت ما يقوله أستاذ علم اجتماع الأدب ؟!!

- أنت تعلم أني كنت في حقوق القاهرة ، وكلية الآداب كانت أقرب الكليات إلينا ، وكنت أحب سماع محاضرات النقد والأدب الحديث ...

- بحكم أنك كنت تكتب القصة القصيرة ، وهي أحد فنون الأدب الحديث .

- نعم .. فقد كنت أقرأ كثيراً عن الأدب بصفة عامة والقصة القصيرة بصفة خاصة ، وأحب حضور الندوات والمحاضرات التي ...

- فهمت الآن كيف عرفت تفاصيل مبنى الكلية وآراء بعض أساتذتها .

كانت ليلة جميلة كأنها أمسية ثقافيَّة استمتعت فيما غاية الاستمتاع فها هو وجيه الفارس النبيل يفتح لي قلبه ويثق فيَّ ويحدِّثني حديث الأصدقاء المقربين ، كنت أريد ألا ينتهي الحديث وأتعلم من علم وتجارب وجيه ولكن ... " .

- سامي .. سامي .. أدركني .. أدركني بسرعة

***

٢٨

بعد المعركة الحامية مع البُرْص أمس نمتُ مهدود الحِيل بعد أن ظفرت به في النهاية والحمد لله ، واليوم أكمل لكم بعض مذكراتي ومواقف وجيه العجيبة .

" ٥/١٠/ ... سعدت بخبر حصول وجيه على تصريح بأربعة أيام للتقديم في قسم الدراسات العليا وسوف يصحبني في إجازتي غداً وهذه فرصة للحديث معه ومعرفة المزيد عن حياته وأسراره ، أخذتْ كلُّ الدفعة تصاريحها ونزلتْ ليلاً ورغم أننا أخذنا التصاريح الساعة الحادية عشرة إلا إنني قررتُ أن أركب الجهاز في الصباح لأكون في صحبة وجيه .

استيقظت في الخامسة والنصف وتوضَّأت وصليت بسرعة ؛ فقد استيقظ وجيه قبلي وصلَّي وجهَّز حقيبة السفر ، وفي السادسة إلا الربع كنَّا نغادر السرية في طريقنا إلى ك ١١٦ في هذا الجوِّ الصحو .. الطريق طويل وما زال الوقت مبكِّراً ، قلتُ أستغلُّ طول الطريق وفسحة الوقت في فتح خزانة أسرار وجيه ، وبعد أن أثنيت على وجيه وحسن خلقه وعمق تفكيره وانضباطه طلبت منه أن يحدِّثني عن حياته وبدأ يحكي كأنه يخاطب نفسه : " نشأت في أسرة فقيرة وعفيفة .. الأب يخرج قبل الفجر ليعود بعد العشاء ومع

ذلك لا تحصل منه أمي إلا على قروش قليلة كان عليها أن تدبِّر بها حياة أسرة تتكوَّن من سبعة أفراد جميع الأبناء فيها في مراحل التعليم المختلفة هذا بالإضافة إلى عمي وولده ، وخالي وولده الذين يمضون معنا شهور الصيف كاملة حيث لا سكن لهم إلا بيتنا الصغير ، وكان على أمي تلك المرأة الأمية العبقرية أن تدبِّر شئون الأسرة أو قُلْ القبيلة بهذه القروش القليلة فكان عليها وحدها مسئولية طبخ الطعام وغسيل الملابس وتنظيف البيت ، وتدبير احتياجاته واحتياجاتنا .

علَّمني ذلك الاقتصاد في الإنفاق وعدم التبذير ومعرفة قيمة الأموال ...

– عرفت الآن إجابة سؤال كان يحيِّرني ؛ فقد كنت أراك أحياناً كريماً جداً وتؤْثِر غيرك على نفسك ، فأنت أكرم مَن في السريَّة ، وما طلب أحد منك شيئاً إلا أعطيته له ، ولا مرَّ عليك أحد وأنت تأكل أو تشرب الشاي إلا عزمت عليه بجد ونفس راضية ، ومع ذلك أُلاحظ أنك تبخل على نفسك فتصرُّ على أن تسافر في الجهاز في الصباح ، مع أن كلَّ السريَّة بمجرد أن تحصل على تصريح الإجازة ليلاً تخرج على الطريق وتركب أي سيارة أجرة .. تنفق بضعة جنيهات لتزيد إجازتها بضع ساعات .

– أنا لا أنفق مليماً إلا فيما يفيد ، أما موضوع السفر ليلاً ففضلاً عن خطورته ، فإني أفضِّل أن أشتري بضعة كتب بدلاً

من توفير بضع ساعات ، كما أني أشتري ملابس رخيصة لأتمكَّن من توفير أثمان الكتب الغالية. هل معنى ذلك أني بخيل؟

- لا .. إنه حرص وهناك فرق بين الحرص والبخل ، إن حرصك مَبنيٌّ على فلسفة ، واقتناع عقلي ، وروَّضت نفسك على ذلك .. فأنت لست بخيلاً ، وإنَّ ما تعمله ليس خطأ ، ولكنه صعب وليس كل واحد يستطيع فعله .

- إن الإنسان يستطيع أن يسخِّر جسمه لعقله ، ويطوِّعه ليقبل أوامر دينه ، فلكي لا أضطر للأكل في الجامعة وصرف مبالغ كبيرة كنت آكل جيداً قبل الذهاب إلى الجامعة ، ولا آكل إلا الساعة الخامسة أو السادسة مساء بعد العودة من الجامعة .

- كيف فعلت هذا ؟

روَّضت نفسي فاستطعت .

- هل كل أخوتك مثلك هكذا ؟

إخوتي كل واحد له عالمه الخاص لا تربطه بغيره من أفراد الأسرة إلى طَبْليَّة الطعام التي يتجمَّعون حولها عِشاء ، وحجرة النوم التي يتكدَّسون فيها ليلاً .

علَّمني ذلك الاعتماد على النفس من سنٍّ مبكرة فإذا لم تهتم بنفسك فلن تجد من يهتم بك إلا إذا سقطت مريضاً عندئذ تحملك الأم إلى مستشفي " أبو الريش " .

كان أبي كثيراً ما يتَّهم أمي بأنها هي سبب فقرنا لأنها حرصت على إلحاقنا بالمدارس جميعاً ، ولو تركتنا لنتعلم صنعة أو مهنة ما كان ذلك حالنا ، مع إننا نعمل طوال الإجازة الصيفيَّة لنوفِّر احتياجاتنا الضروريَّة .

– لقد عشتَ طفولة بائسة عانيتَ فيها الكثير من ...

– بالعكس إن هذه الظروف علَّمتني الكثير ؛ لقد كان كلام أبي هذا يحثُّنا على الاجتهاد في الدراسة لأن الرسوب ليس له إلا معنى واحد أن تخرج من المدرسة وتعمل مع أبي أو في إي مهنة أخرى ، علَّمني هذا الحرص الشديد على التعليم ، والتفاني في تحصيله فهو وسيلتي الوحيدة للارتقاء .

– لقد حوَّلت كلَّ مِحْنَة إلى مِنْحَة ، هل هذا بسبب تدينك ؟

– الحمد لله أن فطرني على حبِّ الدين فأنا أعتبر نفسي متدين بالفطرة ففي نحو الثامنة أو التاسعة علَّمني زميل لي في المدرسة كيفيَّة الصلاة ، ومنذ تعلمت الصلاة وأنا حريص على أدائها ، وأصلِّي معظم الأوقات في المساجد .

– وأنا أعرف أن عندك مكتبة كبيرة فمتى كونتها ؟

– لم يكن في بيتنا كتاب واحد حتى المصحف ، وفي الثانية عشرة من عمري طلبت من خالٍ لي أن يشتري لي مصحفاً،

وكنت شغوفاً بالقراء منذ الصغر لا يقع في يدي شيء إلا وقرأته وكنت أنصت لكلام الكبار وأتعلَّم منه وفي المرحلة الثانوية عرفت الطريق إلى قراءة الكتب واقتنائها فقد كنت أنفق معظم ما أكسبه من العمل طوال الإجازة في شراء الكتب ...

– في أي مجالات المعرفة كنت تقرأ ؟

– كنت أقرأ في كافة مجالات الثقافة والمعرفة وإن كانت الكتب الدينيَّة والفكريَّة تحتل النصيب الأكبر من مكتبتي .

– قلتَ لي إنه كان لك نشاط ديني فمتى بدأ ؟

– في المرحلة الثانوية بدأت رحلتي الدعوية والعلم الديني وكان طموحي أن أكون مفكراً إسلاميّاً ، وبدأت أخطب الجمعة وأعقد الدروس الدينية في الثانوية العامة .

– لماذا اخترت كلية الآداب لتلتحق بها ؟

قطع حديثنا وصولنا إلى الجهاز ، ولم يكن قد فتح أبوابه بعد .. تكلَّمنا مع بعض العساكر من ١١٦ حتى فتح الجهاز أبوابه فتدافع الجنود على الباب وفرَّقوا بيني وبين وجيه فجلست في الصفوف الأماميَّة أما هو فقد جلس في مؤخرة الأتوبيس لأنه كان آخر من ركب الأتوبيس .

انطلق الجهاز حوالي الساعة ٦.٢٥ ووصلنا الشط ، ولم نجد جهاز مصر موجوداً ، ذهبنا إلى مقهى الشط ، وعزمني وجيه

على الإفطار ، وشربنا الشاي ، وكان المنظر جميلاً ، ونحن جالسان أمام قناة السويس ، والراديو يبث أحاديث وأغاني عن حرب أكتوبر ، وأحسست بالفخر أني أخدم في سيناء كأولئك الأبطال الذين حرَّروها ونفخر بهم ... " .

وتسألني عزيزي القارئ ما دخل مقهى الشطِّ وأغاني حرب أكتوبر والسندوتشات بموضوع وجيه ، وأقول لك إن موضوع وجيه انتهى عند هذا الحد ؛ فقد كان سعيداً جداً بسماع أغاني الحرب ورؤية قناة السويس وهو جالس على الضفة الشرقية لها وقال : " ليت كلَّ الجنود يشعرون بإنَّهم يخدمون في سيناء التي حرَّرها جنودنا البواسل بالدماء التي امتزجت برمالها ، ولولا أن يتهمني الناس بالجنون لخلعت حذائي الذي يطأ هذه الدماء الزكية ..

كم أنا فخور بأني أخدم في سيناء ، وأحس أن أغاني نصر أكتوبر لا تخص أبطال الحرب وإنما تخصني أنا أيضاً ..." .

عرفت الآن لماذا كان وجيه شديد الالتزام بكلِّ التعليمات والأوامر العسكرية فهو يحس أنه .... " .

– ماما تقول لك تعالَ ذاكر معي .

***

٢٩

بالأمس بعد عدة مشاجرات مع شريف وأمه حول المذاكرة نمت دون أن أكتب شيئاً ، وهأنذا أعود للكتابة مرة ثانية ، وربنا يستر .

بالأمس نسيت أن أذكر شيئاً غريباً عمله وجيه .. فعندما كان جهاز مصر يمرُّ بنا نفق الشهيد أحمد حمدي صعدت الشرطة العسكريَّة للتفتيش على التصاريح وعلي الممنوعات ، وبعدما رأي العسكري تصريح وجيه سأله عما في حقيبته فقال له ليس فيها إلا بعض الملابس والكتب وجهاز لاسلكي صغير ، ما كاد العسكري يسمع كلمة جهاز لا سلكي حتى هجم على حقيبة وجيه يفتش فيها وأخيراً وجد راديو ترانزستور صغيراً أخذ يقلِّب فيه فاكتشف إنه ليس جهازاً لاسلكياً إنما مجرد راديو عادي فقال لوجيه بغضب هل هذا جهاز لا سلكي؟!

فأجابه وجيه كمن يجيب عن سؤال في المدرسة : كل راديو جهاز لاسلكي ؛ لأنه ليس هناك سلك يصل بين المُرْسل والمستقِبل .. وضجَّ الجهاز بالضحك فدسَّ العسكري الراديو في الحقيبة بغيظ وغادر الأتوبيس على الفور. " .

عجيب وجيه هذا دائماً يفاجئك بأفعاله التي ربما تغيظك لكنك لا تملك أن تلوم عليه ؛ فعندما سألته عن سبب فعله هذا قال لي

إنه يريد أن يعلِّم العسكري أن يفتِّش كل الحقائب ولا يكتفي بأن يسأل الجنود عما في حقائبهم فربما كان فيها ممنوعات فقال له موضوع الجهاز اللاسلكي .

لم تكن حياتنا في سيناء كلها أحاديث عن الحب وعن الغروب والذكريات إنما كانت تمر علينا أيام صعبة ، ونقوم أحياناً بتدريبات شاقة ، ونكَّلف بمهام غريبة ، ومن أسوأ الأيام التي مرَّت عليَّ في الجيش هذا اليوم .

" ١٦ / ١٠/ ... عدت من الإجازة لأكتشف ضياع منامتي التي كانت في عُهْدة عبد الجيِّد ، والذي كان في أشدِّ حالات الكَرْب منذ ضاعت المنامة وقد علمت أنه منذ ضاعت لا يأكل ولا يشرب من تهديد الصول العزازي له .

طمأنت عبد الجيِّد وقلت له إن شاء الله سوف نجدها .

قبل طابور الخدمة جاءني الصول العزازي ، وكنت واقفاً مع عبد الجيِّد وعرض علينا أن يكتب أحدنا شهادة خَصْم على نفسه بثمن المنامة حتى يطمئن ، ورفضنا التوقيع على هذه الشهادة ، وهددنا الصول العزازي وكشف عن وجهه الحقيقي ، وشكانا للضابط محمد الذي وقف بجانبنا على غير عادته .

وبعد العشاء جمع الضابط محمد أفراد السرية في الظلام الدامس وأجلسهم خلف الفصائل ، وقمنا بالتفتيش بالبطاريات : أنا

والضابط محمد والصول العزازي ومحمد جمعة وعبد الجيِّد وأحمد عبد الجواد وقلَّبنا في كل الفصائل عن المنامة التي كان مكتوباً عليها اسم محمد طبل وسامي أبو زيد وتعبت عيناي ، وأنا عندي عشى ليليّ ، من كثرة البَحْلَقَة في الظلام وفحص كل منامات السرية ، بل تفتيش كل الأسِرَّة والمِخَل دون جدوى ، تعبتُ جداً ، واستمرَّ هذا الوضع نحو ساعتين ، والجنود جالسون على الأرض خلف الفصائل ، وأنا أبحث كالمجنون .. أنا وكل من كان يبحث معي دون فائدة .

بعد التفتيش دارت في رأسي الحرب العالمية الثانية ، أخذت شدَّتي لأنام في أحد المخازن القريبة من البوابة فقد كان عندي خدمة ثالثة بوابة ، ومن أين يأتيني النوم ، وأنا المُبْتلى ببلاء أطار النوم من جفوني ، خمس ساعات وأنا أتقلَّب على كل جنب ، وبدا المخزن المظلم سجناً مخيفاً جداً لم أستطع النوم ولو للحظة واحدة من التاسعة ليلاً إلى الثانية ، وأنا أموت دون أن يدري بي أحد .. أتألم بلا أنين حتى جاء ميعاد الخدمة استلمت السلاح وأنا في قمة التعب ، ويا للعجب بعد استلامي للخدمة داهمني النوم ، وسيطرت عليَّ رغبة لا تقاوم في النوم فأنا لم أنم منذ يومين سوى ساعتين ، أما الجو فكان ولا في الأحلام يا سلام .. برق يكاد يذهب بالأبصار .. هذه ليست صورة خيالية إنما واقع حقيقي ..

فكل خمس دقائق أرى ضوءاً شديداً جداً مثل فلاش الكاميرا لمَنْ وضع عينيه خطأ عليه بدلاً من وضعها على عدسة الكاميرا ، فتظل عيناي لمدة ثوانٍ لا أرى بهما شيئاً كأني أصبت بالعمى فجأة ، هذا دون مبالغة والله على ما أقول شهيد ، ثم تبدأ عيناي تريان شيئاً فشيئاً ، ثم أسمع قصف الرعود كقصف دانات المدافع، ثم ينزل المطر منهمراً ، ثم يتوقَّف كلُّ هذا ليبدأ من جديد برق يأخذ بالأبصار ، وعمى مؤقت ، ثم رعد ، ثم يهطل المطر .

كم ساعة يستمر هذا المشهد العجيب الذي لو حدَّثني أحد عنه ما صدقته ؟! استمرَّ طول الخدمة أربع ساعات كاملة ، كانت ليلة أسود من ريش الغراب ، وأغرب من ألف ليلة وليلة ، وأطول من ليل امرؤ القيس .

ألاَ أَيُّهَا اللَّيْلُ الطَّوِيْلُ ألاَ انْجَلِي

بِصُبْحٍ، وَمَا الإصْبَاحُ منِكَ بِأَمْثَلِ

فَيَا لَكَ مَنْ لَيْلٍ كَأنَّ نُجُومَهُ

بكل مُغار الفتل شُدّت بيذبل

النوم يلح عليَّ إلحاحاً لا رادَّ له إلا الله فقد آليت على نفسي ألا يغمض لي جفن في الخدمة هذا ما تعلمته من وجيه الواقف كالأسد خدمة ثالثة سلاح ، وأنا لست أقلَّ منه فقد سمعته يوماً يقول علينا أن نعقد النية على أن مدة خدمتنا في الجيش جهاد في

سبيل الله تعالى ، ورغم أن كل الظروف مهيأة للنوم فالصول العزازي مساعد نوباتجي السرية نائم ليستيقظ مبكراً ويركب الجهاز لأنه نازل أجازة غداً ، وأنا لم أنم منذ يومين إلا ساعتين ، وعيناي مجهدتان جداً من البحث عن المنامة ، والبرق ، وقلة النوم قبل الخدمة ، والبرق ، والرعد ، والمطر كل ذلك يغري بالاختباء داخل أي مكان وأرم بنفسي في أحضان النوم، ولكن كيف أنام وقد عاهدت ربي ألا أنام في خدمة أبداً .

كنت أجلس بعض الوقت فيحط عليَّ النوم وتثقل جفوني حتى تصير كالجبل ، فأنهض بسرعة وأتحرك يميناً ويساراً، وأنادي على وجيه فيشير إليَّ من بعيد ، ثم أشعر بالبرد الشديد أدخل المخزن وأجلس فيه منكمشاً في نفسي فأشعر برغبة ملحَّة في النوم ، وأنا الذي ظللت خمس ساعات لم أنم فيها ثانية واحدة قبل الخدمة ، فأنهض مسرعاً وأخرج .. وهكذا طول الليل .

في هذه الليلة سمعت في الراديو أغنية محرم فؤاد " أبحث عن سمراء " وذكَّرتني بأيام الطفولة عندما سمعتها ليلاً وكنت لم أزل في قريتي قبل أن أجيء إلى القاهرة ، وأتخيل أن واحداً واقفاً على جسر ترعة بلدنا وسط الظلام يبحث عن واحدة ... " .

العجيب أني قرأت في مذكراتي جملة أثرت فيَّ جداً وهي " هأنذا أعود إلى الكتابة بعد حوالي أربعة أيام أو يزيد حدثت لي فيها

أحداث كثيرة مثيرة وغريبة سأحاول أن أتذكَّرها الآن وأنا جالس على الكنبة في البيت لا أخشى أن ينادي عليَّ عسكري أو أمباشي فظ : " اجمع السرية " .

وضحكت حتى سمعتْ زوجتي صوت ضحكي فجاءت تسأل: خيراً إن شاء الله .

وخشيت أن أذكر لها السبب الحقيقي لضحكي فقلت لها : أبداً لقد تذكَّرت نكتة قديمة .

- ما هي ؟

واحترت ماذا أقول لها ، فجأة اختفت جميع النكت التي كنت أحفظها ، ماذا أفعل في هذه الورطة وزوجتي تنتظر أن تسمع النكتة التي أضحكتني ، ليتني ما ضحكت .. ليتني كتمت ضحكتي، وبعد طول انتظار تذكَّرت أقدم نكته سمعتها في حياتي: " مرة واحد راح يقعد على قهوة قعد على شاي " .

وأنا أعرف تشوقك عزيزي القارئ إلى معرفة رد فعل زوجتي ولكن دعك مما قالته زوجتي تعليقاً على النكتة يكفي أن تعلم أني فور سماعي لتعليقها فقدت الرغبة في مواصلة الكتابة فأغلقت الكمبيوتر وذهبت للنوم وأنا أترحَّم على أيام الجيش .

***

٣٠

بعد عودتي من عملي الذي لم أعمل فيه شيئاً يُـذْكر لـشعوري بـالغيظ الـشديد مـن تعليـق زوجتي على نكتة الأمس ؛ لذا تظاهرت أنـي غاضـب منهـا ، ولـم أقـل شـيئا أثنـاء الغـداء وقمت بعده مباشرة ، وجلست على الكمبيوتر ، وبدأت أكتب .

" ١٧/١٠/ ... استيقظنا الساعة السابعة والنصف ، ولبسنا اللبس الرياضي ، وقمنا باختراق ضاحية لمسافة ١٠ كيلو ذهاباً وإياباً ، والحمد لله كان ترتيبي الثالث بعد ميخائيل ووجيه ، وحمدت الله إني أكملت السباق ، وأني بهذه اللياقة التي فاقت الكل ما عدا اثنين .

كان عندي خدمة نهارية قرأت فيها كُتَيِّباً صغيراً عن الحرب كان قد أخذه سعيد من الأمباشي عليّ ، وفي الكتيب معلومات عن كيفيَّة مواجهة العدو ، وحفر الخنادق ، والخدميَّة الليليَّة ، وطُرُق صدٍّ وتدمير الطائرات والدبابات ، وقرأت فصلاً غريباً عن الماء ، وكيفيَّة الاقتصاد فيه وترشيد استخدامه لدرجة أنه يعلمك كيف تستحم بنصف زمزمية ماء ، وذلك بوضع الماء في دورق ثم يُبَلَّل المنديل بالماء ويدعك بالصابون ثم يُدَلَّك به أعضاء الجسم ، مع

تكرار هذا الأمر حتى يدلك الجسم كله بالصابون ، ثم يبلل المنديل بالماء ويعصر للتخلص من الصابون المتبقي ، ثم يبلل ويمسح به الجسم حتى يتم إزالة الصابون من الجسم ، وهو كتيب شيق ، وفيه فصل يحتوي على أهم الكلمات العبرية التي تتعلَّق بالحرب، وهي مكتوبة باللغة العربية وكذلك نطقها ومعناها.

ظللت أقرأ في هذا الكُتَيِّب حتى دخل الليل وإن كان القمر يضيء الدنيا ، وبدأ سعيد وحسام وعبد الرحمن وفرغل وعلى عبد ربه وكامل يلعبون صلَّح أمام ف٣ وأخذت أتابع الأطفال الكبار ، أو الكبار الأطفال ، وأنا سعيد بالمشهد الطفولي الذي يذكِّرني بالريف ، ولعب الأطفال مثل هذه الألعاب على ضوء القمر ثم لعبوا لعبة أخرى اسمها " البدنجانة " وهي عبارة عن أربعة أكوام من الرمل موضوعة على شكل مربع ، ودائرة في المنتصف يقف فيها شخص ويقول " بدنجانة " فيتحرَّك كل واحد ليحل محل أحد اللاعبين الآخرين ، والذي يفشل في الوصول إلى أحد الأماكن الأربعة يمر على الأربعة كل واحد منهم يضربه على يده وهو في وضع صلَّح ، وكل واحد يضرب حسب مزاجه قوة أو ضعفاً ، وكله سلف ودين فسيرد له عندما يقع ، وهي شبيهة بلعبة الكراسي الموسيقية ، وكانت لعبة جميلة ومسلية سعدت بمشاهدتها ، ولم أشارك فيها بعد انتهاء الخدمة فقد تعلَّمت من وجيه ألا أشارك في

هذه الألعاب التي تشتمل على عنف وضرب وقلَّة قيمة خاصة أن معظم من يلعبها عساكر عادة غير متعلمين ولا يراعي كثير منهم آداب اللياقة والذوق ، وعندما وصلت اللعبة إلى ذروة الحماسة والمتعة أرسل الصول عبده إليهم يأمرهم بالكف عن اللعب ، وإلا أعطاهم طابور ذنب يخلع الجنود فيه كل ملابسهم إلا الشورت فقط ويقفون في البرد القارس .

وأصيب الزملاء بالإحباط، وعاد كل واحد إلى فصيلته ، وانفضَّ الجمع .

١٩/١٠ / ... بالأمس حكى لي الباجوري موضوعاً مهماً وهو أن إبتسام (بطلة قصة النهاية) عادت من السفر فقد تصادف أن قابل صديقاً له وعلم منه أنه خطب نادية جارة إبتسام وكاتمة أسرارها ، وأحياناً كان الباجوري يقابل إبتسام في بيتها ، وبعد سفر إبتسام زار الباجوري صديقتها الحميمة كريمة وأخبرها برغبته في خطبة إبتسام ، وأرسلت كريمة لإبتسام تخبرها بما قاله لها الباجوري ، وأكَّدت نادية لإبتسام هذا الخبر في خطاب أرسلته لها، المهم أخبر خطيب نادية هذه الباجوري بعودة إبتسام ، وتهللتْ أسارير الباجوري ، واشتعل حبه القديم ، وقرَّر أن يذهب لإبتسام لكن صديقه هذا أخبره أن إبتسام سوف تسافر غداً الجمعة

إلى مصر ، ولم يتمكَّن الباجوري من السفر إلى مصر ؛ فأجازته ستنتهي يوم السبت .

وقرَّر الباجوري في إجازته القادمة أن يذهب إلى إبتسام ويطرق بابها رغم ما في الموضوع من مخاطرة حيث من المحتمل أن يفتح له زوج أختها أو أحد أقاربها ، أو تفتح له هي ، وتتنكَّر له بسبب ما فعله فيها قبل سفرها ، ونصحته أن يوسِّط صديقتها نادية لتمهِّد له الطريق وتزيل سوء التفاهم قبل لقائه بها ، وبينما نحن على ذلك إذا بحسام يزف بشرى للباجوري بأن جاءه تصريح من الكتيبة بـ ٦ أيام ، ولم يكن قد مرَّ على عودة الباجوري من مأمورية مدتها١٠ أيام إلا يوماً واحداً فقط ، ثم يأتي من هذه الإجازة لينزل ١٠ أيام أخرى ميعاد دفعة إجازته الأصلي ، ولم يستطع كل من في السرية كتم غيظه أو حسد الباجوري على قرابته للصول جمال ، حتى أنا قد تضايقت رغم صداقتي القوية للباجوري . ومما زاد من حزني أني منذ ٢٠ يوما لم أكتب أي عمل أدبيٍّ .. ما أصعب أن يعجز الأديب عن الكتابة ، ويخون القلم صاحبه ، ويجف نبع فكره ، وتتحجر مشاعره ! " .

بحثت عن بقية قصة الباجوري فوجدت :

" ١٠/٢٦ /... بعد العودة من صلاة الجمعة طلب مني الباجوري أن يحدِّثني بخصوص التطورات التي حدثت في موضوع إبتسام .

جلسنا خلف كشك السلاح وقال لي إنه في إجازته الماضية كان جالساً مع والديه وحدثته أمه عن عروسة ترى أنها مناسبة له فقال لها : أنا لا أفكِّر في الزواج الآن ، والفتاة الوحيدة التي كنتُ أحبها وأريد الزواج منها والدي الله يكرمه ضيَّعها ، وكان أبوه يسمع ولا يعلِّق ، ثم تكلَّم وقال : أنا لا مانع عندي الآن أن تتزوَّج بمن تشاء ، وأكَّدت الأم كلام أبيه .

وفي هذا اليوم قابل الباجوري شاباً يسكن في شارع إبتسام ، علم منه أن إبتسام لم تخطب بعد ، وأن زوج أختها أبو السعود صاحب محل بقالة رجل متفهِّم جداً ، وفي اليوم التالي ذهب الباجوري إلى محل أبو السعود زوج خيرية أخت إبتسام وعرَّفه بنفسه ، طلب منه يد الآنسة إبتسام وحكى له حكايته معها ، وسبب عدم الذهاب لمقابلة عمها ورفض أبوه الذهاب معه لسببين: أنه لم يكن قد دخل الجيش بعد ، والأمر الثاني أن أباه كان يريد أن يزوجه ابنة عمه ، وتفهَّم الرجل موقف الباجوري وطمأنه على الموضوع ، ووعده أنه سيكلِّم إبتسام ويعرض عليها طلبه ، والرأي

الأول والأخير سيكون لها وسيدعِّم موقفه أمامها ، وحكى له الباجوري أنه لم يبق له سوى ٧ شهور فقط وينهي الخدمة العسكرية ، وأن والده ميسور الحال والحمد لله ، ولم تكن إبتسام موجودة في البلد إنما كانت عند أختها الأخرى في القاهرة ، وطلب الباجوري من " أبو السعود " أن يعطيه عنوانها في القاهرة ، ولكنه قال له : إنه ليس في مصلحته الذهاب إليها ، وعليه أن ينتظرها وهي ستأتي خلال يومين أو ثلاثة على الأكثر .

وبعد ثلاثة أيام ذهب الباجوري لزوج أختها "أبو السعود" في بيته ، وهناك سمع صوت إبتسام وانشرح صدره ، ولكنه فوجئ أن الأستاذ أبو السعود يقسم له إنها لم تأت حتى الآن ، وأنه كلَّم عمها صباح اليوم ووافق على شرط موافقتها ، ولام الباجوري عليه عدم أعطائه عنوان إبتسام المرة السابقة ، وكرَّر له أبو السعود نصيحته له بعدم التسرُّع في مثل هذه الأمور ، ولقائه بها قبل أن يمهِّد له ، وكان كلام "أبو السعود" معه مطمئناً جداً وصرَّح له إنه موافق بنسبة ٥٠٠ % ، وإذا رفضت إبتسام فعليه أن يعاود الكرَّة مرة أخرى .

وطلب منِّي الباجوري أن أعلِّق على كلامه فقلت له : ألم أقل لك كثيراً بل ألححت عليك أن تذهب لزوج أختها ، قال الباجوري :

لقد صدق رأيك ليتني سمعت كلامك من قبل ، وأيَّدت رأي زوج أخت إبتسام في عدم اليأس إن رفضت إبتسام طلبه أول مرة بل يستمر في استرضائها ، فقد كان جُرْحه لها عميقاً .

وألحَّ عليَّ الباجوري أن أكتب له قصة " النهاية " التي عرضت فيها مشكلته مع إبتسام كمقدمة جميلة لكلامه مع إبتسام لكني اعتذرت له فالقصة ليست معي ، ووعدته بكتابة نسخة وإهداء له"

بحثت عن بقية قصة الباجوري التي فيها لقاؤه بإبتسام بعد الفراق الطويل وكيف انتهت حكايتهما التي ... " .

- سامي ، هل أنت غاضب مني ؟

- لا .. أبداً .

- لم تقل كلمة واحدة على الغداء .

- لا .. شيء .. لا .. شيء .

- هل ستتكلَّم أم أتركك وأمشي ؟!

***

٣١

بعد أن تركتني زوجتي بالأمس ومشت خشيت أن تكون قد غضبت مني ، وغضب زوجتي شديد لا يطاق ؛ فتركت الكتابة وذهبت لأصالحها.

واليوم أكمل لك عزيزي القارئ بقية قصة الباجوري أو مسلسل الباجوري فحكايات الباجوري يمكن أن تكون مسلسلاً أطول من ليالي الحلمية .

" ٨/ ١١/ ... جلست مع الباجوري وحكى لي ما حدث في موضوعه قال : " بعدما عدت إلى البيت ذهبت في اليوم التالي إلى زوج أخت إبتسام في دكانه ، وسألته : هل قلت لإبتسام على رغبتي في خطبتها ؟ فأخبرني أنه حاول محاولات كثيرة أن يقنعها ، وقاطعته: ليست هناك مشكلة . فردَّ : انتظر .. أنا استطعت إقناعها ، وأخذني إلى بيته ووجدت إبتسام وأختها .

سلمت على إبتسام وقلت لها " وحشتيني جداً " فقالت : أنت أكثر ، ثم تركنا الزوجان ، ودخلا يُعِدَّان الطعام .

قلت لإبتسام : أنا لا أريد أن نتكلَّم في الماضي الآن ، نتركه لوقت آخر ، ودار حوار بيننا لم يكن مفعماً بالعواطف كما كنت أتوقَّع ، إنما كان حواراً عادياً .

وعندما أردت أن أتكلَّم مع زوج أختها عن تفاصيل الخطوبة قال لي : إن هذه المواضيع من تخصُّص عمها . واتفقت مع إبتسام على ميعاد أذهب فيه إلى عمها .

وقد كان وذهبتُ إلى عمها ، وقال لي عمها المتعجرف أنه كان ينوي ألا يكلمني بعدما أخلفت معه وعدي قبل ذلك ، ثم بدأ عمها يملي عليَّ شروطه : تجهِّز ثلاث غرف جهازاً مثل بقية أخواتها ، وشبكة لا تقل عن ١٠ آلاف جنيه . شرحت له ظروفي وأني ما زالت في الجيش .

– أنا أعرف أن والدك هو الذي سيجهز .

– ولأن أبي سيساعدني أحمِّله فوق طاقته ؟!

– نحن أيضاً سنساعد في الجهاز فسنجهز لك حجرة .

وبعد مناقشات طويلة وافق على تخفيض ثمن الشبكة إلى ٨ آلاف جنيه ، واتفقنا على ميعاد الخطوبة .

ويوم الخطوبة ذهبت أنا ووالدي وأمي وأخواتي ، وإبتسام وأختها وزوج أختها لنشتري الشبكة ، ووفي الطريق دسَّت إبتسام ٣ آلاف جنيه في يدي خِفْية ، وقالت لي : أنا أريد شبكة تشرِّف ، واشتريت لها شبكة بـ ١٠ آلاف جنيه .

وأقمنا حفلة صغيرة جداً في شقة أختها اقتصرت على الأهل وبعض الأصدقاء ... " .

وهكذا انتهت قصة الباجوري التي حيَّرتني كثيراً ، وما يحزنني حقاً أني نسيت أن أحضر قصة النهاية التي تمثل المرحلة الحرجة في حياة الباجوري ، وحزن الباجوري جداً جداً على ذلك ، وكذلك أنا فقد حان أن يطْلع الباجوري إبتسام على القصة . وفكَّرت أن أكتب القصة من الذاكرة ولكني فشلت .

كان الباجوري يتحدَّث في موضوع إبتسام بلا حماس ، بخلاف حكاياته السابقة عنها، لدرجة إنه قال لي : إنه يحس أن عمَّها قد ورَّطه في الشروط التي فرضها عليه ، وأنه نادم على قبولها .

والعجيب أني كنت أكثر حماساً من الباجوري في سماع تفاصيل الحكاية أو نهاية قصته مع إبتسام ، وانفعلت بها جداً وهو يحكي وكنت أرغب في كتابة قصة رومانسية جميلة تصور لحظة لقاء الباجوري بإبتسام بعد عودتها من السفر ... " .

– بابا .. بابا .. ماما تقول لك : " تعال صلِّح الدِّش " .

***

٣٢

صعدت إلى سطح البيت منذ عدة أيام لإصلاح " الدِّش " فقد انفصل الإرسال فجأة وظهرت عبارة " لا توجد إشارة " على شاشة التليفزيون تلك العبارة التي ما كرهت عبارة مثلها في حياتي لأني عملت كل المحاولات لإصلاح " الدِّش " وإعادة الإرسال دون جدوى فبعد أن اطمأننت على الطبق والسلك وعدسة الطبق LNB ونزلت جاءت الإشارة والحمد لله ولكن ما كدت أفتح جهاز الكمبيوتر وأواصل الكتابة حتى نادت عليَّ زوجتي : " لا توجد إشارة " .

وهرعت مرة ثانية إلى التليفزيون لأجد العبارة اللعينة " لا توجد إشارة " على شاشة التليفزيون حركت سلك " الدِّش " جاءت الإشارة ، وفرحت وانتظرت بعض الوقت لأتأكد من عودة الإشارة بشكل نهائي والحمد لله لم تنقطع ولكن لم أكد أصل إلى الكمبيوتر حتى سمعت زوجتي : " لا توجد إشارة " حركت السلك فعادت الإشارة ثم انقطعت ثانية ، وتحت ضغطت زوجتي صعدت ثانية إلى السطح وطرقت باب جارتنا التي تسكن على السطح وأنا محرج ، واستأذنت منها أن أصلح الدش مرة ثانية ، وأعدت

الاطمئنان على السلك والعدسة والطبق مرة ثانية واتصلت بزوجتي فقالت لي إن الإشارة عادت مرة ثانية ، ونزلت بعدما أحكمت تثبيت السلك في العدسة LNB ووضعت فوقه شريط لحام لإحكام تثبيته وعدم تحركه إذا هبَّت الرياح أو أمطرت السماء .

نزلت لأتابع الإشارة ، أمضيت نحو ساعة ونصف الساعة أتباع الإشارة وزوجتي تتابع برامج التليفزيون وما كدت أتيقن من إصلاح " الدِّش " والانتهاء من مشكلته حتى عادت عبارة "لا توجد إشارة" ليقف البث على صورة لإعلان عن وحدات سكنية للشباب ثمن الوحدة ٣٥٠ ألف جنيهاً فقط !

اعتذرت لزوجتي ووعدتها بإصلاح " الدِّش " غداً ونمت وأنا أتميز من الغيظ ، ولم أكتب شيئاً في اليوم التالي حيث أمضيت الوقت كله في إصلاح " الدِّش " وعندما فشلت اتصلت بالعامل المختص، وصعدت معه للمرة الخامسة أو السادسة إلى السطح وطرقت باب جارتنا وأنا في " نصف هدومي " وتكاد رأسي تلامس صدري من الخجل ، وبعد أن أصلح العامل الدِّش وأعطيته ٥٠ جنيهاً لامتني زوجتي على المبلغ أما عندما عادت عبارة " لا توجد إشارة " مرة ثانية ليقف البث على أحد مشاهد المسلسل الذي تتابعه زوجتي فكان رد فعلها قاسياً .

المهم دعنا من موضوع "الدِّش" ونعود إلى موضوع الباجوري " كنت أرغب في كتابة قصة رومانسية جميلة تصور لحظة لقاء الباجوري بإبتسام بعد عودتها من السفر وخطبتهما ، ولكن الظروف حالت دون ذلك ... " .

حتى قصة الباجوري حالت الظروف دون كتابتها .. العجيب كلما تذكَّرت أن هذه الظروف سوف تنتهي بانتهاء الخدمة العسكرية ، وسأكون حراً في كتابة ما أشاء في أي وقت أشاء أترحم على أيام الجيش التي كتبت فيها أجمل قصصي هذه القصص التي عجزت بعد نهاية الخدمة العسكرية ليس عن كتابة مثلها بل عن كتابة أي قصة أخرى ، وعندما حاولت نشر هذه القصص وحكاياتها حدث لي ما أخبرتك بشيء منه عزيزي القارئ، ولم يبق إلا أن أحدثك عزيزي القارئ عن آخر قصة كتبتها في الجيش ، وعن أيامي الأخيرة فيه .

أبدأ بالقصة التي كتبتها متأثراً بآخر مشروع حرب شاركت فيه .

اعتذار

عندما تأزَّم الموقف ، وبدأت طبول الأزمة تُقْرع ، وكاد المحظور أن يقع . تذكَّر ما كانوا يحكونه له في أوقات الراحة ، خشي من أن يُضْحِي ضحايا الحب ضحايا الحرب ، وأسرى الأحباب أسرى الأعداء .

خشي أن يكون الحسين في كربلاء ، وأن يجزع في البلاء .

- (فهل الباجوري سيحمل سلاحاً ويواجه العدو الشرس؟! هل حسام سيصبر على الجري فوق الرمال الحارقة وحمل الشدة الثقيلة ؟! هل محمد أنور سوف ينقذ إخوانه إذا تعرضوا لخطر؟! هل الصول إسماعيل ، والعزازي ، وحسن ، والضابط محمد ، ومدحت سيقودوننا في المعركة إلى النصر؟!

ربما وقف وجيه وقفة الرجال ، والنقيب هشام وقفة القادة الشجعان ، ولكن ماذا عن بقية أفراد السرية ؟!

أفاق سامي على صيحات الرعود ، وزئير الأسود ، والالتزام الصارم ، وتنفيذ الأوامر ، وطلقات الصواريخ والقذائف والرصاص، وإصابة المرامي والأهداف اطمأن قلبه وقوي ساعده وثبتت أقدامه .

بعد انتهاء مشروع الحرب صافح سامي الجنود والقادة ووَدَّ أن يعتذر لهم جميعاً ، ولكنه خشي أن يسألوه عن سبب الاعتذار.

لم يبق إلا أن أحدثك عزيزي القارئ عن آخر أيام الجيش ، وأحداث تسليم المهمات .

" يوم الأربعاء ٢١/١١/ ... كنا قلقين لأن الإشارة التي تحمل أسماء من أنهوا خدمتهم العسكرية قد تأخَّرت ، طبخت أرزاً

وبطاطس ، وشربنا شاياً ، والساعة ٧ ذهبت إلى الفصيلة ، وفوجئت بعد قليل بعبد الرحمن ينادي على عبد الجيد ويخبره أن الإشارة وصلت ، وتجمعنا بسرعة ، وذهبنا إلى ملجأ الإشارة ، وانتشر الفرح ، وعلا التهليل ، كل السرية كانت سعيدة ، بعد ذلك جلسنا نفكِّر كيف سنذهب إلى الكتيبة لتسليم المِخَل ؟ وماذا سيقول النقيب عند عرض الإشارة عليه ؟

وكان رأيي أن نذهب غداً في الجهاز إلى الشط ، وهناك نركب جهاز الحَسَنَة ، وكان من رأي بعض الزملاء أن ننتظر عربة التعيين يوم الأحد .

وذهب عبده حامد إلى النقيب بالإشارة ، وقال له النقيب : غداً تسلموا مُهِمَّاتكم للصول العزازي ، ومعنى هذا أننا لن نذهب غداً للكتيبة ؛ لأن الجهاز الذي يذهب إلى الشط يتحرَّك نحو الساعة السادسة صباحاً من ك ١١٦ ، ولن نتمكَّن من تسليم المهمات إلا بعد الجَمْع ، والإفطار أي نحو العاشرة أو الحادية عشرة .

يوم الخميس ١١/٢٢ استيقظت نحو السابعة والربع ، وعَلِمنا أن الجَمْع بلبس اللياقة وسوف يدير طابور اللياقة النقيب بنفسه ، وكنا خائفين أن يرهقنا كعادته ويهد حيلنا ، ونحن نريد أن ندَّخر جهدنا ليوم التسليم ، والحمد لله كان الطابور قوياً وإن كان غير

مُرْهق ، فطرنا بعد الطابور ثم جمعنا للتقسيم على العمل، وصَرَفَنا الضابط مدحت نحن الرديف .

وطبخ لنا عبد الرحمن حلَّة بطاطس لا بأس بها ، ولم يكن عندنا جراية فذهبت إلى فرغل وأخذت منه ٣ أرغفة أكلتها أنا ، ومحمد جمعة ، ومصطفى أنور ، ثم جاء التعيين بامية .

وفي هذه الليلة عملنا حفلة ساهرة في فـ٢ أحياها من النجوم والفنانين أحمد عبد المنعم – صاحب فرقة زفة – ومحمود عبد الفتاح (السويسي) والسيد أحمد ، ومعتز ، ورقص كل الموجودين بما فيهم عبده حامد الذي أذهلنا رقصه فهو الرجل الذي يبدو كشيخ عجوز ؛ فكل شعره أبيض ليس فيه شعرة واحدة سوداء ، كان يرقص كشاب في العشرين من عمره وهو الذي تجاوز الثلاثين ، وغنَّى أحمد عبد المنعم أغاني الأفراح ، واكتفيت أنا ووجيه بالتصفيق فقط .

وحضر الضابط مدحت في منتصف الحفل وأشار كل واحد منا إليه أن يجلس بجواره ، ولكنه اختار وجيهاً وجلس بجواره ، وأخذ يتكلَّم معه ، وتناقش معه وجيه حول طريقة ذهابنا إلى الكتيبة للتسليم ، وتوصلا أن أفضل طريقة هي أن نركب العربة الـ " يونيمك " إلى تمادا غداً بعد صلاة الجمعة ، ونركب من تمادا

الجهاز إلى الكتيبة وبهذا نكسب يومين ، وتمسَّك وجيه بهذا الرأي.

بعد الحفلة ذهبت أنا ووجيه إلى جمال سائق العربة الـ "يونيمك" وأفهمناه الموضوع ووافق على أن نخبر النقيب في الاجتماع بهذا الرأي ، ولم أنم في هذه الليلة إلا سويعات قليلة .

اجتمع النقيب هشام شبارة بنا نحن – الرديف – في مكتبه بعد أن ألغى الاجتماع العام . دخلنا عليه وقد دوَّرنا الصول عبد القادر ، وهنَّأنا النقيب ، وأخذ يداعب حسام قائلاً : " إياك أن تعمل عمل خضر " ثم أخذ ينادي على أسمائنا واحداً واحداً : عبده حامد ، مصطفى أنور ، وجيه صبري ، سامي أبو زيد ، حسام ثروت ، عبد الرحمن السيد ، محمد أنور ، عبد الجيد علي ، فرغل محروس ، كان بعض الزملاء قد فوَّض عبد الرحمن ليطلب من النقيب أن يوافق على أن نذهب غداً في العربة الـ " يونيمك " ، ولكن عبد الرحمن لم يطلب من النقيب شيئاً ، فطلب وجيه من النقيب أن يسمح لنا بالذهاب غداً بالعربة الـ " يونيمك "، والعجيب أننا فوجئنا أن عبد الرحمن يعترض على هذا الاقتراح ، ويؤيده بعض الزملاء وبهذا أُلْغي الطلب ، وفي نهاية اللقاء طلب النقيب منا أن نسامحه إذا كان قد أساء إلى أحد منا أو قسا عليه

أو وقَّع عليه جزاء ، ثم صافحنا وقبَّلنا واحداً واحداً هو والضابط مدحت ، وحضن الضابط مدحت وجيهاً حضنا دافئاً طويلاً .

بعد الاجتماع بكى عبد الرحمن تأثراً بكلام النقيب ، أو فرحة بإنهاء الخدمة العسكرية الله أعلم ، أما محمد أنور فأخذ يضحك على النقيب الذي يريد أن نغفر له كل الذي عمله فينا بكلمتين حلوين وقُبْلة ، وسلَّم علينا الصول عبد القادر وقال كلمتين حلوين، وضحكت في نفسي منه .

أما وجيه فلم أره غاضباً كغضبه بعد اجتماع النقيب ؛ بسبب رفض عبد الرحمن وغيره اقتراحه أمام النقيب وهو الاقتراح الذي كنا قد اتفقنا عليه قبل اجتماعنا بالنقيب ، أخذ وجيه يسب الجهلاء، ويتنبأ بكثرة المشاكل التي ستحدث لنا غداً عندما نذهب لركوب الجهاز من ك ١١٦ ، وخفت من أن يتحقَّق ما تنبأ به جيه ولا نستطيع أن نذهب إلى الكتيبة غداً ..." .

- بدلاً من جلوسك أمام الكمبيوتر ليل نهار كنت أصلحت الدش ... !!! أم أنك .... سامح الله أبي الذي ... لو كنت أعلم أن حياتي معك ستكون ... هل صدقت نفسك أنك ... ؟ ... والله إنك لا تصلح أن تكون ...

***

٣٣

بعد أن عدت من العمل لم أنم وقررَّت أن أصلح الدش حتى لا تتكِّد عليِّ زوجتي مرة ثانية .

لم يعد أمامي إلا تغيير السلك نزلت واشتريت لفة سلك ثلاثين متراً وصعدت إلى السطح لأغير سلك الدش صعدت هذه المرة وأنا أقلُّ خجلاً من ذي قبل فقد قابلت جارتنا التي تسكن على السطح وأنا عائد من العمل اليوم وحملت عنها ما كانت تحمله من خضار وفاكهة ولوازم البيت ولم أتركه إلا أمام شقتها وانتهزت الفرصة فقلت لها وأنا ألهث من ثقل الحمل وطول السلم : بعد العصر إن شاء الله سوف آتي لأصلح الدش .

وبالفعل استبدلت السلك الجديد بالسلك القديم الذي فوجئت أن الفئران قد قرضت منه أجزاء تسببت في إتلافه بحيث لم يبق من السلك إلا شَعْرة وهذا هو سر مجيء الإرسال وانقطاعه لأن هذه الشَّعْرة ساعة تَرُوح وساعة تجيء .

ثم ثبَّتُ السلك الجديد في البلكونة تثبيتاً جيداً بحيث لا يُعِيق الحركة في البكونة ويكون منظره مقبولاً ، ثم أحسنت تثبيته داخل الشقة بحيث لا يبدو ظاهراً حتى يرضي زوجتي التي ... المهم

عاد الإرسال والحمد الله واختفت العبارة اللعينة ، واستغللت فرصة فرح زوجتي بإصلاح "الدِّش" وعودة الإرسال وعدت لأكمل مذكراتي:

" الجمعة ٢٣/١١/ ... استيقظنا الساعة ٨ وأكلنا فولاً ، وبدأنا نكيِّس (١) كل المهمات ونضعها في المِخَل ، كيَّست كل المهمات ما عدا الأفرول المُمَوَّه الذي كنت ألبسه ، ثم جمعنا للتام الساعة العاشرة والربع ، وعقد لنا النقيب اجتماعاً أمام مبيته ، تحدَّث حديثه المعتاد الذي حفظناه من كثرة ما سمعناه ، وبدأ يسأل عن المشاكل ، ولم يتكلَّم إلا الباجوري الذي قال :

إن خطوبته يوم ٣٠ /١١ ، ويريد تصريح إجازة ، وصرَّح له النقيب بالنزول يوم ٢٧ / ١١ والعودة يوم ١٢/٢ .

صلَّينا الجمعة في مسجد السرية الجديد الذي بنيناه طوبة طوبة، بل نحن الذين ضربنا طوبَه بأيدينا بعدما أحضرنا الطَّفْلة من الجبل في عملية شاقة جداً ؛ فعندما كنت أنظر إلى جدران المسجد أحسُّ أنها تنضح عرقاً وشقاء ، أما وجيه فقال إن هذا المسجد يذكرني بمسجد " قُباء " أول مسجد بناه المسلمون في المدينة.

خطب وجيه خطبة الجمعة عن حوار أهل الأعراف مع أصحاب الجنة ، وأصحاب النار ، ولا أدري لماذا اختار وجيه هذا

(1) التكييس معناها وضع المهمات في أكياس بلاستيكية شفافة .

الموضوع ؟ وهل له علاقة بأن هذه الجمعة هي آخر جمعة لنا في الجيش ؟

وسألت وجيهاً بعد الصلاة ، ونحن في انتظار تسليم المُهمّات : المنامات ، والبطاطين وجراكن الماء التي تسلمناها عند ترحيلنا إلى السرية وهي مُهمّات زيادة عن التي تسلمانها في مركز التدريب ، سألت وجيهاً : هل هناك دلالة لاختيار هذه الخطبة تحديداً فابتسم ولم يُجِب ... " .

نسيت أن أذكر أني وجدت منامتي التي كانت ضائعة والقصة كما جاءت في مذكراتي " يوم ٢٠/ ١٠ وجدت منامتي التي كانت ضائعة في إحدى عربات الحملة فقد أخذها جمال السوّاق ونام عليها دون أن يستأذن من عبد الجيِّد ونسيها في العربة ، ونزل أجازة وعندما عاد عرف موضوع المنامة فتذكَّر أنه وضعها في إحدى عربات الحملة لينام فيها محل خدمته ، وجرينا أنا وعبد الجيد نفتش في عربات الحملة حتى عثرنا عليها ، وحمدنا الله تعالى حمد الشاكرين ، وعفونا عن جمال وسامحناه ، وأعلنا الخبر وفرح كل من في السرية وتجمعوا حولنا وهنئونا ... " .

أعود استكمال آخر أيام لنا في الجيش .

" ها هي الأيام تمر سريعاً ، وكنت أحسبها مشلولة الحركة فمنذ وطئت قدمي أرض سيناء يوم ٢/٢٣ / ... كنت أرى يوم انتهاء

الخدمة العسكرية على خير كحلم بعيد المنال .. كحلم أعمى أن يعمل ساعاتي ، وكسيح أن يعمل عَجَلاتي .

كنت خائفاً من أن الصول عزازي يرفض أن يستلم مني المنامة لأن " سوسستتها " لا تعمل ، ولكن ربنا ستر فتحت له المنامة ورآها واستلمها دون تعليق ، وأنا غير مصدِّق .

أخذنا عدة صور لنا عند التسليم ، وفي أماكن مختلفة في السرية تمثل لنا أيام العذاب والشقاء وتمثل لوجيه أيام البطولة والفداء .

في عصر هذا اليوم لعبنا مباراة كرة قدم مع ك ١١٧ تعادلنا فيها ٥/٥ وكنا قد فزنا عليهم بالأمس ٥/ ٢ ، بعد المباراة أخذنا نغنِّي ونتذكَّر الأيام الصعبة التي مرَّت علينا ونحمد الله تعالى أن وفقنا إلى إنهاء الخدمة العسكرية على خير ، ونمنا مبكرين ؛ لأن الغد يوم شاق والذهاب إلى الكتيبة لتسليم المِخَل سفر طويل .

استيقظت الساعة ٤.١٠ فجراً دون أن يوقظني أحد ، وكان الجو بارداً جداً ، توضأت وصليت ، وأيقظت زملائي ، وخلعت الأفرول الذي كنت أرتديه وكيَّسته ووضعته في المخلة ولبست لبساً مَلَكِيّاً لأول مرة في السرية ، وكنت خائفاً أن أنسى شيئاً يسألوني عنه عند تسليم المخلة ، واستيقظت السرية كلها لوداعنا

وبعد الإفطار وشرب الشاي ، وضعنا المخل في العربة الـ " يونيمك " ، وقَبَّلنا السرية كلها ، وكدت أبكي ، سلَّمت على محمود تربية ، وسمير علوم ، ومحمد عبد الرازق الفلاح الفصيح، والباجوري وغيرهم ، وركبنا العربة مع المِخَل وسارت العربة ونحن نملأ عيوننا من السرية ، ونشير لزملائنا وندعوا لهم أن يخرجوا بسلام ، وأخذ بعض الزملاء يطبِّلون على الجراكن الفارغة ويهللون ، كان الكل فرحان وسعيد فكل دفعة تخرج تتأهب الدفعة التي بعدها لتلحق بها بعد ثلاثة أشهر أو ستة وصلنا إلى ك١١٦ ورفض عسكري الأمن أن يدخلنا بالعربة فنزلنا وحملنا المِخَل ، وسرنا مشواراً طويلاً جداً حتى وصلنا للجهاز الذي سنركبه ، وفوجئنا أن سائق الجهاز يرفض أن يركبنا الجهاز ، وتضايقنا جداً جداً جداً ، وذكَّرنا وجيه بلهجة صارمة بما كان قد اقترحه علينا بالأمس ، وها نحن نرى نتيجة خطأنا ، وكان وجيه قد اقترح علينا أيضاً أن نلبس ميري لا ملكي لأن الملكي سيكون عائقاً لنا من ركوب الجهاز ، وبالفعل أصبح لبس الملكي أكبر عائق بالنسبة لنا حيث رفض سائق الجهاز أن يسمح لنا بركوبه ، وحملنا المِخَل مرة ثانية وسرنا بها ونحن نَئِن تحتها كأسرى الحرب ، خرجنا على الطريق الإسفلتي ، ونحن في غاية الأسى والحزن على المستقبل المظلم لهذه الرحلة .

وحملنا المِخَل وخرجنا على الطريق لعلنا نجد أي سيارة أجرة تأخذنا إلى السويس مع تخوِّف من عدم وجود سيارة ، ولحسن الحظ وببركة دعاء الوالدين وقف أحد الأجهزة العسكرية لأن بعض الجنود الذين كانوا يركبون فيه قد نسي أن يختم تصاريح الإجازة ، وكان محمود السويسي قد تركنا ليلحق بهذا الجهاز ، وإذا بالسويسي يأتي مسرعاً ليبشرنا بأن الجهاز قد توقَّف ينتظر أن يختم بعض الجنود تصاريحهم ، وجرينا ونحن نحمل المِخَل على الطريق الإسفلتي وسبقتهم جميعاً وقد خفَّت المِخْلة ، ولم تعد إلا ريشة بسبب الفرحة المفاجأة وركبنا الجاهز والحمد لله .

ركبنا الجهاز ، وكان جهازاً قديماً ، وبينما يسير بنا إذ اعترضتنا سحابة (شبُّورة) لا أدري ماذا أسميها ، دخل فيها الأتوبيس كما يدخل في نفق الشهيد أحمد حمدي بالضبط ، مع فارق جوهري وهو أننا في نفق الشهيد نرى الأضواء الساطعة على الجانبين ، ورجال الجيش ، وسيارات على الجانب الآخر ، أما هذا النفق فلا نرى إلا الضباب الأبيض فقط ، وكأننا نسير وسط السحاب بطائرة، كان منظراً عجيباً حقاً ، حتى أن بعض الزملاء داعبني قائلاً : تأمل هذا المنظر ، واكتب لنا فيه قصة أو قصيدة، كان منظراً فريداً حقاً ، أن تغوص في شيء يشبه رغاوي الصابون الكثيف ، أو القطن المندوف ، تُرى عزيزي القارئ كم ظللنا على

هذا الوضع ؟! ساعة إلا ربع بالتمام والكمال ، والجهاز يسير في هذا الجو العجيب ، الذي لم أشهد له من قبل مثيلاً ، وخلال هذه المدة لم ينقطع دعاء وجيه ولا استغفاره ولا تبتُّله لله تعالى .

وأخيراً وصلنا شط القناة ، والمشكلة الآن أن الساعة كانت حوالي التاسعة صباحاً ، وجهاز الحَسَنَة سيأتي الساعة الرابعة عصراً ، فماذا نفعل في هذه المدة ومعنا المِخَل ، قال الصول العزازي المرافق لنا في هذه الرحلة نضع المِخَل في كافيتريا الشط، ويبقى معها واحد لحراستها ، والحمد لله تطوَّع عبد الجيِّد أكرمه الله ووافق أن يبقى مع المِخَل ، وركبنا المعدية وعبرنا قناة السويس ووصلنا إلى السويس .

اقترح علينا الصول العزازي أن يدفع واحد منا المصاريف ثم تقسَّم هذه المصاريف على الأفراد بعد ذلك ، ودفع محمد أنور حساب الميركوباص ، ونزلنا السويس .

سرت أنا ووجيه ، وسار كل اثنين أو ثلاثة معاً ، بحثنا عن مطعم ، وأخيراً دخلنا مطعماً صغيراً فملأناه حيث كان عددنا ١١ فرداً ، وأنزل العامل معظم الطعام الذي عنده : خمسة أصناف سلطات : طحينة ، وسلطة طماطم ، وباذنجان مخلل ، وطرشي ، وجرير .

أما الطعام فكان : فول ، وطعمية ، وباذنجان مقلي ، وبطاطس، وكانت أكلة قوية جداً ، لم آكل في حياتي أكثر مما أكلت في هذا اليوم ، وكان الحساب في النهاية ١٠٠ جنيه دفعها محمد أنور .

خرجنا نبحث عن مقهى ، وسرت أنا ، ووجيه نتكلَّم عن الجيش وعن الدراسات العليا ، جلسنا على مقهى جميل عند موقف أتوبيسات مصر شربنا شاياً وسمعنا أغاني جميلة ، سرت أنا ووجيه نجوب شوارع السويس ، وحدَّثني وجيه خلال هذه الرحلة عن نشاطه الثقافي والعلمي .

وكان حديث وجيه ظريفاً ومسلياً رغم أهميته وفائدته كان ذلك يوم السبت ١١/٢٤ ، أذن الظهر دخلنا صلينا في مسجد السيد البدوي الظهر والعصر جمع تقديم ، ثم تجوَّلنا حتى الساعة الثانية، ثم ركبنا ميكروباص ، وذهبنا إلى الشط الشرقي للقناة .

وجدنا الزملاء قد سبقونا إلى الكافيتريا التي فيها عبد الجيِّد والمخل، وحسبنا حسبة المصاريف ثم قسمناها ، وكان نصيب كل واحد نحو ٢١.٥ جنيهاً .

وجاء جهاز الحَسَنَة .. جهاز قديم جداً ومتهالك ، ورفض السائق أن يركبنا الجهاز ، وتشاجر معه محمد أنور ، وأخيراً

وافق، وكَسَّر الجِهاز عظامنا ، وهدَّ حيلنا ، ووصلنا الحَسَنَة الساعة ٦.١٥ مساء ، وكان البرد شديداً جداً جداً ، وأنزلنا الجهاز على بوابة الكتيبة ، وقمنا بحمل المِخَل مسافة كبيرة إلى الشئون وسألنا عن الصول العطَّار ، وأخيراً اهتدينا إليه ، وطلبنا منه أن يتسلم منا المِخَل ، فرفض إلا أن نأتي له بعربة يستلَّم على نور مصابيحها ؛ لأن الظلام شديد ، ونور حجرة الشئون ضعيف لا يكفي . وتركَنَا الصول العزازي ومضى بعد أن أوحى لنا أن الصول الذي سيستلم منا المِخَل يريد مالاً .

وانفرد محمد أنور بالرجل ليعطيه مبلغاً من المال ، وإذا بالرجل يصيح فيه ويهدده بإدخاله السجن ، ذهب بعضنا إلى الحَمْلة لإقناع أي سائق بإحضار سيارته ، وذهبت أنا وعبده حامد إلى ملجأ الإشارة لإحضار كشاف أو بطارية ، وجلسنا في الإشارة ، ولم نجد ما نريد .

وعاد مَنْ ذهب إلى الحَمْلة خالي الوفاض ، والحمد لله أن أحضر عبد الرحمن كشافاً من أحد الصولات ، ولكن الصول العطَّار رفض أن يسلمنا على نور الكشاف لأنه ضعيف ، وكدنا نيأس بل يأس بعضنا بالفعل فذهب محمد أنور وحسام ليأتيا بطعام من عزبة بجوار الكتيبة ؛ لأن الموقف كان ينذر بأننا لن سلم اليوم ، طالت وقفتنا في البرد الشديد والقلق الأشد .

أخيراً وجدنا نور عربة جريت أنا ووجيه عليها مسافة طويلة ثم رجونا صاحبها ، والحمد لله وافق الرجل أكرمه الله ، وأتينا بالعربة، كان الصول العطار قد مشى ، بحثنا عنه بلهفة ، وأخيراً وجدناه ، ووافق .

وفتحنا المِخَل ، وسأل العطار : هل منكم أحد مؤهلات عليا ؟ قال : وجيه أنا وظننا أنه لن يفتح مِخْلَتَه ولن يفتشها هكذا قال لنا زملاؤنا القدامى ، وتهيأت أن أتقدم بعد وجيه ، وفوجئت بالصول يطلب من وجيه أن يفتح مِخْلَتَه ، وهو يقول : المفروض إن بطاطينك جديدة جداً لأننا نحاسب على بطاطين المؤهلات العليا.

فوجئ الصول إن إحدى البطاطين الثلاثة قديمة جداً منحولة الوبر فرفض أن يستلمها ، فقال له وجيه : أنه سلم بطانيته الجديدة للسرية بدلاً من هذه البطانية التي سلَّموها له لينتفع بها غيره من الجنود المستجدين ؛ لأنه يعلم أن البطاطين المسلَّمة تظلُّ في المِخْلة ولا ينتفع بها أحد !!

وأصرَّ العطار ألا يستلم هذه البطانية وتسلَّم بقية المخلة فلم يجد فيها شيء مخالف ، وتحيَّر وجيه ماذا يفعل في هذا الموقف السخيف ، هل هذا جزاء المعروف ؟! اقترح عليه السائق الشهم الذي حلَّ لنا مشكلة الإضاءة بنور عربته أن يذهب إلى عاصم في الكنتين ويبدِّل الباطنية منه ، وانطلقت أنا ووجيه بالبطانية

القديمة إلى الكنتين وسط الظلام ؛ وهو يكاد يتميِّز من الغيظ ؛ فقد استلم العطار جميع المِخَل الأخرى دون أن يعترض على شيء حتى مِخْلتنا محمد أنور وحسام غير المتواجدين استلمهما ، وصلنا إلى الكنتين .. سألنا أحد الجنود عن عاصم فقال لنا : أنا عاصم .

قال له وجيه : لو سمحت غيِّر لنا هذه البطانية لأن الصول العطار لا يريد استلامها لأني مؤهلات عليا .

– أنت مؤهلات عليا ؟

– نعم .

– من أي كلية تخرجت ؟

– الآداب .

– أي جامعة ؟

– جامعة القاهرة ، أرجوك غيرها لي بسرعة قبل أن يمشي الصول العطار أو يأخذ السائق عربته .

– أنا سأغيرها لك لا تخف .. من أي سرية أنت ؟

– أنا س٢ أهرام حرس حدود .

وأخيراً أعطاه بطانية جديدة جداً وأخذ البطانية القديمة ، الله يكرمه ، وعدتُ أنا ووجيه نجري وقَبِلَ الصول العطار البطانية الجديدة ، وشوَّن وجيه مِخْلَتَه ، وعند استلام المفاتيح لاحظ

الصول أن المفتاحين غير متشابهين ، ورفض الاستلام إلا إذا أحضر وجيه قفلاً جديداً بمفتاحين على الأقل .

وذهب وجيه مرة ثانية إلى الكنيتين ليشتري قفلاً ولم أذهب معه هذه المرة ، وعاد وجيه سريعاً ليقول للصول إن الكنتين ليس فيه أقفال ، ورفض الصول العطار أن يستلم مِخْلَة وجيه ، وذهبت أنا ووجيه إلى عاصم مرة ثالثة ودفع وجيه ثمن القفل وكتب عاصم تعهداً بشراء القفل وتسليمه للصول العطار ، وقَبِل الصول هذا التعهد واستلم المخلة .

تعجبت جداً من هذه المواقف العجيبة التي حدثت لوجيه ، ولوجيه تحديداُ مع إنه جندي مثالي ، وعندما أخبرت وجيه بذلك ابتسم كعادته وقال كلمته الأثيرة : لعله يكون خيراً التي يتبعها بقول تعالى : ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ فقلت لوجيه متعجباً : وما الخير في هذا ؟! "

- سامي .. سامي .. لا توجد إشارة .

***

٣٤

عندما سمعتُ زوجتي بالأمس تقول : لا توجد إشارة انخلع قلبي وشُلَّ تفكيري وهرعت إليها ، وفوجئت بضحكات زوجتي وابني شريف الذي قابلني صائحاً: ضحكنا عليك يا بابا .. ماما أغلقت التليفزيون وقالت : لا توجد إشارة !

وقالت زوجتي عندما رأتني غاضباً : أنت لا تترك الكمبيوتر إلا لتصلح شيئاً في البيت .. تعال اجلس معنا وكفى كمبيوتر .
أمضيت سهرة الأمس مع زوجتي وولديَّ ، وهأنذا أعود لأكمل حكاية آخر أيام الجيش .
" فقلت لوجيه متعجباً : وما الخير في هذا ؟!
فقال : أليس خيراً أن ترى شاباً كعاصم الذي بدَّل لي البطانية وحلَّ مشكلة القُفل من غير سابق معرفة ؟ أليس هذا درساً عملياً على إغاثة للهفان ؟
قلتُ :

من يفعل الخير لا يعدم جوازيه * لا يذهب العُرْف بين الله والناس

وعندما تسلمنا الإخلاءات ، قال وجيه لو ولم يحدث معي ما حدث لما كانت فرحتي بهذا القدر ، ألم أقل لك لعله يكون خيراً .

كانت الساعة قد وصلت إلى العاشرة ليلاً عندما تسلمنا الإخلاءات وجرينا إلى مكتب الأفراد ، والحمد الله كان ما زال مفتوحاً ، وعمل لنا تصاريح بخمسة أيام ، وأعطانا التعبئة الثانية، وأعطانا أوراقاً أخرى ، ونحن خارجون من مكتب الأفراد قابلنا محمد أنور ، وحسام وقد أحضرا طعاماً ، وذهبنا إلى ملجأ الإشارة حيث أرسلنا إشارة طمأنا فيها السرية على أن التسليم قد تمَّ بحمد الله ، ثم ذهبنا لننام . " .

وبهذا أكون قد وفيت بوعدي لك عزيزي القارئ بذكر ما وعدتك به في الرواية الأولى ، وكنت أنوي إن قُدِّر لهذه الرواية أن تنتشر كالرواية الأولى ، أن اكتب روايات أخرى .. رواية عن : مذكرات شاب حديث التخرج .. ورواية عن يوميات زوج معاصر .. ورواية عن مذكرات محقق قانوني .. وغيرها من الروايات .

ولكن ظروف الحياة وكثرة الأعباء الأسرية اضطرتني إلى العمل بعد الظهر في أعمال شتي لأفي بالالتزامات المتزايدة ، وللأسف كما تعلم عزيزي القارئ فإن الأدب لا يطعم من جوع ، ولا يؤامن من خوف ، وظروف الحياة هذه الأيام لا ترحم .

ومنذ أنهيت هذه الرواية لم أكتب شيئاً إلا هذه القصة آخر عهدي بالكتابة والتأليف .

نهاية أديب مغمور

ألحَّت عليه برسائلها لدرجة لم يستطع عنها السكات ؛ جلس إلى الكمبيوتر وشرع في كتابة الرسالة .. لكن ماذا يكتب ؟

(عزيزتي ، أم صديقتي ، أم ...)

رسائل إعجابها حركت فيه رومانسيته المخنوقة .. خفق قلبه الميت .. كاد يكتب قصيدة غزلية مع أنه ليس شاعراً .. خطفته الحياة .. بعد أسبوع كامل عاد .. الرومانسية الوليدة وئدت .. يستحث الكلام .. يدفعه دفعاً .

" عزيزتي أحلام :

أعتذر عن تأخر الرد .. لن تصدقيني إذا قلت لك أني مشغول لدرجة لا تسمح لي بالكتابة لك رغم حرصي الشديد على ذلك .. أعلم أنك لن تصدقيني .. ستقولين إن الأدباء يختلقون الأعذار للهروب من المعجبين .. لن تصدقيني إذا قلت لك إنك أول المعجبين الذين كتبوا إليَّ .. لا أخفي عليك أني سعدت برسائلك أيما سعادة ؛ فقد أعادتني إلى الوراء خمس سنوات على الأقل .

عزيزتي أحلام :

تسأليني لماذا لم أعد أكتب ؟ .. لماذا جفَّ مداد قلمي ؟ .. سؤالك برئ كقلبك الأخضر .. لكن الإجابة أليمة كقلبي المتحجِّر .

الأدب يا عزيزتي الصغيرة ليس حرفة يستطيع الإنسان أن يمارسها في أي وقت .. الأدب أمير يحتاج إلى أن يأكل حتى الشبع ، وأن ينام حتى الضحى ، وإلى فراغ كبير لا يفسده عمل .

وأنا يا عزيزتي .. طعامي يكفيني لأحيا فقط لا لأكتب ! .. أستيقظ من النوم على صوت جرس نحاسي عالي الرنين بعد الفجر .. لا أخلو بنفسي إلا لأنام .. أمير الأدب ملَّ حياتي .. هجرني .

يا عزيزتي .. الأدب أمير ، وأنا فقير .. فقير .. أعتقد أن قلبك الصغير الرقيق لا يعرف ماذا تعني كلمة فقير ؟

يا عزيزتي كلمة فقير تعني أني إذا لم أستيقظ عند الفجر ، وأعمل طول النهار ، وجزءاً من الليل فلن أجد ما آكله أنا وأسرتي .. كلمة فقير يا عزيزتي تعني باختصار أن أبذل أقصى ما أستطيع ؛ لأحصل على أقل المتاح .

وتسأليني لماذا لم أعد أكتب قصصاً ؟!!

يا عزيزتي أنا لم أعد أكتب قصصاً فحسب بل لم أعد أفكِّر ! .. لا أملك الآن إلا أن أتألَّم .. أتألَّم ، ولا أستطيع التأوُّه .

أنا آسف عزيزتي ؛ لأني أخبرتك بالحقيقة المؤلمة .. لكن ليس عندي غيرها ، ولا أستطيع حتى أن أُألِّف غيرها .. أنا مثلك أتمنَّى

لو امتلأ قلمي بمداد الحب .. لو أرتاح من هموم القلب .. لو زارني أمير الأدب .. لو آكل حتى الشبع .. لو أستيقظ دون أن يوقظني شيء .. لو أحتسي الشاي في الشرفة المطلَّة على النهر.. لو ارتسمَتْ الابتسامة على الثغر .. أقسم لك لو حدث شيء من هذا لقرأت في اليوم التالي أحلى القصص .

عزيزتي الصغيرة .. إن انشغالي بالرد عن سؤالك أنساني شكرك على كلماتك الرقيقة التي لا أجد ما أرد عليها به إلا أن أدعو الله ألا تستيقظي من حلمك الوردي الجميل .. حلم العذارى الشفاف النقي ، وأن تظل حياتك رومانسية ، وألا يوقظك رنين الجرس النحاسي عند الفجر .. وأن تظل سنابلك خضراء .. وبقراتك سمان ، وأن تجدي وقتا تقرئين قصصاً جميلة لشاب رومانسي لم تطحنه الحياة ، أو لرجل يمتلك ثمن القلم ، والورق، والمداد .

والسلام ختام .

ملحوظة :

أرجو ألا ترسلي لي رسائل بعد ذلك حتى لا تفسدي عليَّ حياتي، وتذكِّريني بأشياء ماتت يؤلمني بَعْثُهَا .

يا أرقَّ الناس .. يا أحبَّ الناس وداعاً لا لقاء بعده .

***